نصوص يمنية
عن
الحملة الفرنسية على مصر

نشر وتحقيق

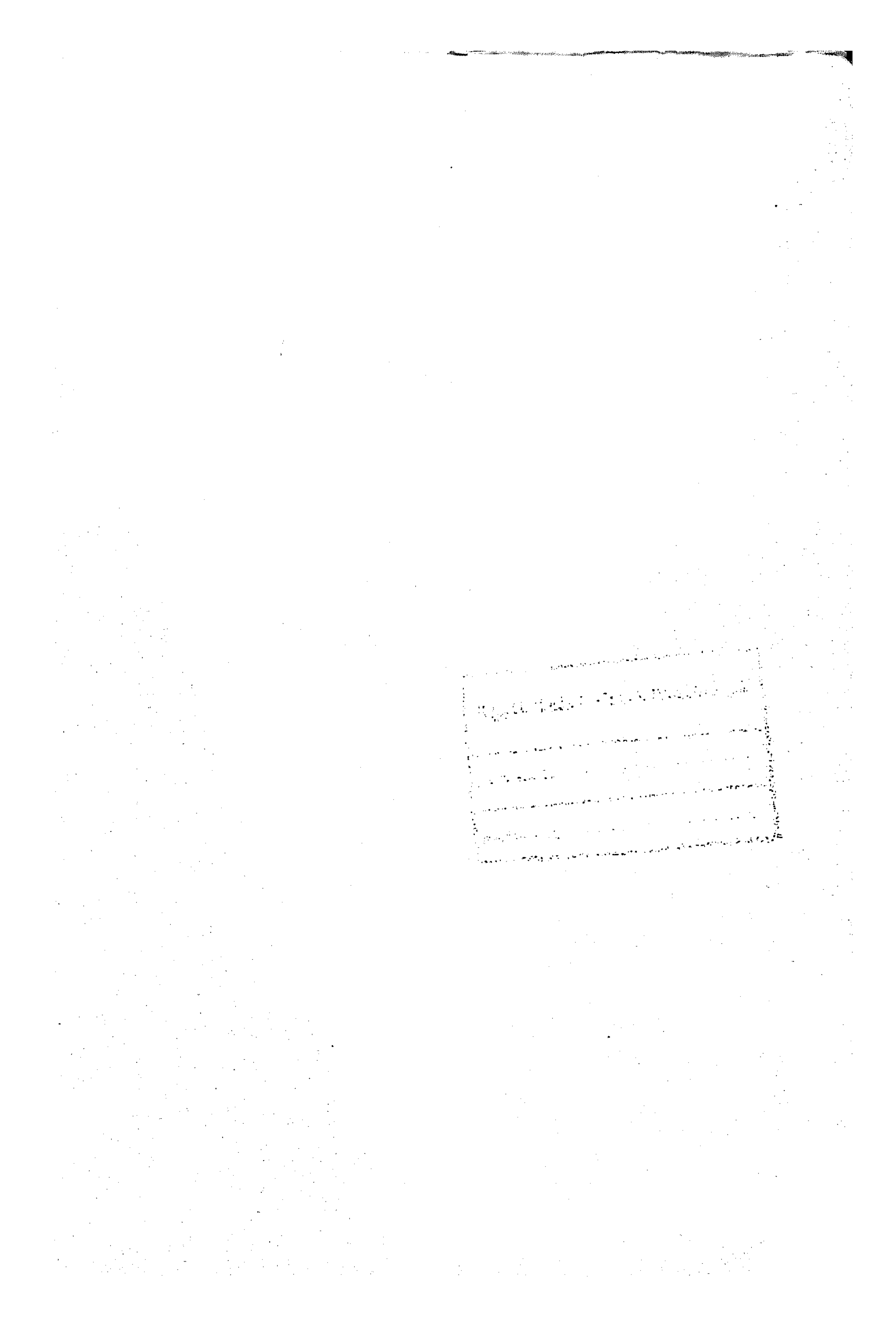
دكتور سيد مصطفى سالم

الطبعة الثانية
١٩٨٩



صنعاء ـ ٣

مركز الدراسات اليمنية



نصوص يمنية
عن
الحملة الفرنسية على مصر

نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر

نصوص مختارة من المخطوطة اليمنية

«درر نحور الحور العين بسيرة»

«الإمام المنصور على ورجال دولته الميامين»

١١٨٩ — ١٢٢٤ هـ
١٧٧٥ — ١٨٠٩ م

تاليف

لطف الله بن أحمد جحاف

١١٨٩ — ١٢٤٣ هـ
١٧٧٥ — ١٨٢٨ م

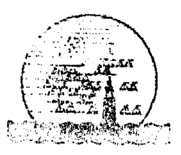
نشر وتحقيق

دكتور

سيد مصطفى سالم

كلية الآداب بجامعة عين شمس

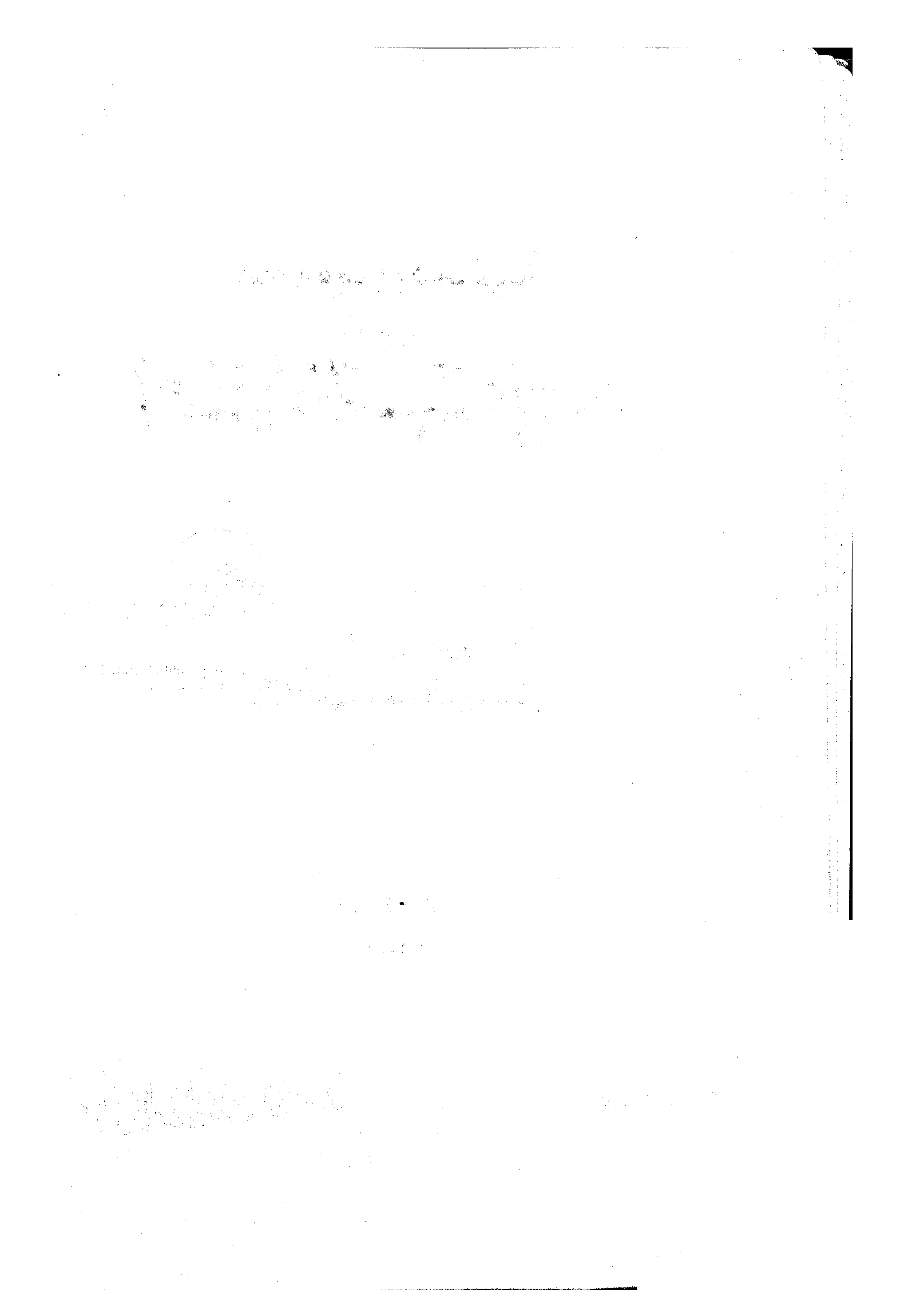
نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر



نشر وتحقيق
دكتور سيد مصطفى سالم

الطبعة الثانية
١٩٨٩

مركز الدراسات اليمنية
صنعاء ـــ ٣



الإهداء

إلى الشعب اليمنى

الذى غمرنى دائما بالحب والتقدير ..

إلى أستاذى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

حباً وتقديراً ..

دكتور سيد مصطفى سالم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

عندما يُقدم المرء على إعادة طبع كتاب من كتبه لابد أن يسارع بتقديم الشكر إلى كل من شجعه على اتخاذ هذه الخطوة ، هؤلاء الذين إطلعوا على الكتاب فوجدوا أنه إضافة إلى المكتبة العربية وخاصة اليمنية وأنه لابد من توفير نسخة بين القراء ، وهؤلاء الذين لم يطالعوه لكنهم شعروا بأهمية موضوعه وأنه من الضرورى إعادة طبعه ليتوفر إقتناؤه .

وموضوع هذا الكتاب صورة تاريخية من صور التأثير والتأثر التى تبرز على السطح بين الفينة والأخرى عندما يتعرض طرف من أطراف حوض البحر الأحمر لخطر خارجى أو داخلى فتهتز له باقى الأطراف ، وهذا مما يؤكد رسوخ العلاقات المصرية ــ اليمنية وكأنها قدر مكتوب ، أو أنها استجابة لعبقرية المكان لكل من البلدين ، إذ تقع مصر عند شمال البحر الأحمر واليمن عند جنوبه . وبالأحرى يمثل حوض البحر بوتقة لتفاعل الأحداث بين أجزائه ــ إما سلباً أو إيجاباً ــ منذ أقدم العصور حتى الآن .

تعرضت مصر عند أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر (١٧٩٨ ــ ١٨٠١م) لغزو الحملة الفرنسية ، أى حملة أجنبية أوربية على الشرق العربى بعد الحملات الصليبية المعروفة . عندئذ تعالت أمواج البحر الأحمر لتدوى على شطآنه ، وتردد صداها ، فهب المتطوعون وعبروا البحر ليدخلوا مصر من شواطئها الشرقية . وكان الحماس يعلو هؤلاء المتطوعين ، لكن تنقصهم الأسلحة الحديثة التى حملها الفرنسيون إلى مصر ، فباءت جهودهم بالفشل ، وإختلطت دماءهم بمياه النيل وبتراب واديه .

وقد استخرجت نصوصاً من مخطوطة يمنية عاصر صاحبها هذه الأحداث وإنفعل بها ، فكتبت عنها بدراسة ، وعلقت عليها بهوامش . وقد أوضحت قصة عثورى على هذه النصوص ، وشرحت المنهج الذى سرت عليه عند نشرها والتعليق عليها فى مقدمة الطبعة الأولى وفى الدراسة التمهيدية ، لذلك لن أكرر هنا ما ذكرت ، بل أكرر فقط الشكر للجميع .

و بالله التوفيق ...

صنعاء فى يناير ١٩٨٩م

دكتـــور
سيد مصطفى سالم
جامعة صنعاء

مقدمة الطبعة الأولى

مازالت الدراسات اليمنية تحتاج إلى الكثير من العناية والجهد والبحث ، لا فى مجال التاريخ فحسب ، بل فى كافة فروع العلوم الإنسانية ، إذ مازال اليمن يعتبر حقلا بكراً ينتظر الجهود المضنية ، لكشف كنوزه الدفينة وللتعرف على جوانب شخصيته الاجتماعية والطبيعية . ونتأكد من ذلك كلما أوغلنا فى البحث فى جانب من جوانب الشخصية اليمنية ، ففى مجال التخصص ـ أى التاريخ ـ يشعر المرء دائماً بأن هناك بحر لا ينضب من التراث الذى يحتاج الكشف عنه والتعريف به ، أو الذى ينتظر العثور عليه والرجوع إليه لكتابة الأبحاث المستفيضة عن جميع عصور اليمن التاريخية ، بل وهذا التوغل يدفع المرء إلى الشعور بضآلة ما بذل وما كتب لخدمة هذا التاريخ ، وأن هناك الكثير الذى ينتظره ، والذى يحتاج إلى جهد جماعات من الكتاب والباحثين .

وبعيداً عن الدخول فى تفاصيل كثيرة أو نماذج عديدة للتدليل على ما ذهبت إليه ، فإن قصة التعرف على المؤرخ اليمنى لطف الله جحاف ، والعثور على مخطوطته الأصلية ونسخها الأخرى والاطلاع عليها . ثم استخراج النصوص منها وتحقيقها ، هذه القصة التى تناولتها فى بداية الدراسة التمهيدية إنما تدل على جدارة هذا التراث بالبحث والتنقيب عنه من ناحية ، وعلى ثرائه وعمقه من ناحية أخرى ، إذ لا نغالى إذا قلنا أن مجرد اسم هذا المؤرخ لم يكن معروفاً لدى الكثير من اليمنيين ، ولم تكن جوانب شخصيته أو مؤلفاته مألوفة متداولة ، بل كاد هو وكتاباته يطويها النسيان ، وتتوه مع جوانب التراث اليمنى الأخرى التائهة . ولكن عندما خطوت نحوه ،

وحصلت على نسخ من كتابه الهام « درر نحور الحور العين » وجدت نفسى أمام مؤرخ كبير ، وعالم موسوعى ، جدير بالوقوف أمامه وأمام مخلفاته وقفة طويلة تبلغ أضعاف الوقفة القصيرة التى وقفتها معه، فقد عالج فى كتابه هذا الكثير من المسائل التاريخية التى عاصرها فى داخل اليمن وخارجه ، فضلا عن محاولاته الجادة الأخرى فى شتى مجالات المعرفة ، مما يجعله يقف إلى جانب المؤرخين الكبار الذين عاصروه ، بل ولا نغالى إذا اعتبرناه « جبرتى » اليمن ، وخاصة بالنسبة للأحداث اليمنية الداخلية .

ولهذا كله ، فقد بذلت جهداً كبيراً للتعرف على شخصية المؤرخ ، وللحصول على مؤلفه الكبير ، وللبحث بين طياته على النصوص الخاصة بالحملة الفرنسية ، ثم نسخ هذه النصوص نقلا عن النسخة التى يصعب قراءتها إلى حد كبير ، هذا فضلا عن العصر الذى عاشه المؤرخ ، فأدى هذا جميعه إلى قراءة الكثير عن ترجمة حياته ، وعن الإمام الذى كتب سيرته ، بل وإلى الاتصال بكثير من الأخوة اليمنيين الفضلاء الذين بذلوا كل ما فى وسعهم لمساعدتى ، منذ أن حصلت من أحدهم على النسخة « الأم » ، إلى أن تم تحقيق هذه النصوص .

وقد شدنى إلى بذل هذا الجهد كله الرغبة فى التعرف على هذا المؤرخ اليمنى الذى اهتم بتتبع أحداث جزء بعيد عنه من الوطن العربى رغم صعوبة المواصلات فى عصره ، وأردت أن أكشف عن مدى قرب أو بعد معلوماته عن الحقيقة بالنسبة لموضوع « الحملة الفرنسية » ، وكيف انفعل هو ومن عاصره - فى اليمن وفيما حوله - بالأحداث فى مصر .

وقد زاد اهتمامى بتحقيق هذه النصوص ونشرها عندما نشبت حرب أكتوبر المجيدة (١٩٧٣ م) ، وانفعل العرب جميعاً بهذه الحرب ، فقد شاهدت بنفسى - وكنت مقيماً بصنعاء حينذاك للتدريس بجامعتها - تلك

العواطف الملتهبة التى شملت جميع أنحاء اليمن ، رسمياً وشعبياً ، إذكان الأهالى يتجمعون ـ فى مجالسهم الخاصة وفى الشوارع ـ حول أجهزة الراديو لالتهام أخبار الحرب إلتهاماً ـ من محطات الإذاعة المختلفة ـ والتعليق عليها . ورأيت الحكومة اليمنية ـ رغم ضعفها المادى ـ تعمل على جمع التبرعات وإرسال الأدوية إلى الجبهتين المصرية والسورية ، ورأيت الأهالى يندفعون إلى التبرع بالمال ، وإلى التطوع بالنفس للانضمام إلى صفوف المحاربين ، وكان من بين هؤلاء المتطوعين العسكريون والمدنيون على السواء ، بل وكانت النساء الأميات المحجبات يسارعن إلى التبرع بدمائهن من أجل المعركة ، لقد أثار ـ هذا كله وغيره من مظاهر الاهتمام بالحرب المصيرية ـ مشاعرى ومشاعر غيرى من المصريين هناك . وهنا أدركت أكثر فأكثر أهمية هذه النصوص ، التى تعبر عن أصالة الشعب اليمنى وارتباطه بالمصير العربى فى الماضى كما فى الحاضر .

وقد تعمدت كتابة دراسة تمهيدية طويلة ، تحدثت فيها عن كيفية التعرف على المؤرخ ، وعلى كيفية الحصول على نسخ مخطوطته ، كما تكلمت فيها عن مؤلفاته الأخرى ، وعن منهجه التاريخى ، وذلك قبل التحدث عن طبيعة النصوص نفسها ، ومدى صحة معلومات المؤرخ عن الحملة ، ثم ما هى النقاط الجديدة التى جاءت فى هذه النصوص ، وما هى أهميتها بالنسبة « لموضوع » الحملة الفرنسية ، وذلك فى موضوعية ملتزمة ، ودون مبالغات عاطفية .

وأخيراً فانى أقدم الشكر إلى جميع الأخوة اليمنيين الذين لم يدخروا وسعا فى مساعدتى ، والذين أشرت إلى بعضهم فى هوامش الدراسة التمهيدية ،

كما أتقدم بالشكر إلى زملائى أعضاء مجلس إدارة مركز الدراسات اليمنية الذين قرروا فى جلستهم المنعقدة فى ١٠ يونيه ١٩٧٤ طبع هذا البحث ونشره على نفقة المركز .

والله ولى التوفيق ؟

دكتور

سيد مصطفى سالم

القاهرة فى : أغسطس ١٩٧٤

دراسة تمهيدية

الحملة الفرنسية وأهميتها :

لفتت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١ م) نظر المؤرخين والكتاب على اختلاف جنسياتهم واتجاهاتهم ووجهات نظرهم ، منذ مجيئها إلى مصر حتى وقتنا الحالى . وقد احتلت الحملة هذا الاهتمام الكبير نظراً لدلالتها فى الصراع الدولى حينذاك من ناحية ، ولتأثيرها فى تاريخ مصر والشرق العربى من ناحية أخرى . وتعددت الآراء حولها ، فرأى البعض أنها مغامرة فاشلة من جانب «حكومة الادارة» للخروج من أزمتها فى أوروبا وخاصة مع انجلترا ، أو من جانب ضابط شاب طموح — هو بونابرت — يريد لفت الأنظار إليه باستمرار عن طريق القيام بالأعمال الحربية وإحراز الانتصارات . ورأى البعض الآخر أن الحملة كانت عملا ناضجاً أرادت الجمهورية الفرنسية الفتية — من خلالها — أن تنشر مبادئها خارج فرنسا ، وأنها نجحت — بناء على هذا الرأى — فى حفر منحنى جديد وعميق فى التاريخ الحديث لمصر وللشرق العربى ، وأصبحت مفتاح هذا التاريخ ، أو أنها — على أقل تقدير — أثارت الموجات فى المجرى الراكد الذى كان هذا التاريخ يتردى فيه . وليس هنا مجال الوقوف عند هذا الرأى أو ذاك ، بل يكفى القول بأهمية هذه الحملة فى تاريخ مصر والشرق العربى الحديث ، وأنها كانت أولى الصدمات العسكرية والحضارية الهامة التى أرسلتها أوروبا إلى الشرق منذ الحروب الصليبية ، أو منذ خضع الشرق للحكم العثمانى ، وتحول إلى مجرد ولايات عثمانية .

وقد بدأ اهتمامى بالحملة الفرنسية وآثارها فى مصر منذ عدة سنوات أثناء تدريسى لتاريخ مصر الحديث بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة عين شمس . وازداد هذا الاهتمام إلى الحد الذى حاولت فيه كتابة دراسة مستقلة بها ، وذلك عند موقفين بارزين :

أولهما : عند قراءة بعض النصوص عنها من كتابات المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى مع طلبة السنة الأولى بالقسم خلال دروس مناهج لبحث التاريخى .

وثانيهما: بعد ظهور كتاب الدكتور لويس عوض بجزأيه(١) ، ومحاولتى مع بعض الزملاء مناقشة نقاطه الرئيسية بين طلبة الدراسات العليا بالقسم ، والرد على ما أثاره المؤلف ، الذى عمل على إبراز أثر الحملة على مصر ، وأنها هى التى خلقت مصر الحديثة .

العثور على المخطوطة :

ولكن مشاغل التدريس العديدة ، ثم إعارتى إلى اليمن بعد قليل ، لم يساعدا على كتابة هذه الدراسة المستقلة حينذاك . إلا أن هذا الاهتمام الدفين بالحملة الفرنسية ، قدر له فجأة — أثناء وجودى فى اليمن — أن ينفض عن نفسه ظلال النسيان الخفيفة التى غطته ، وذلك رغم مشاغل التدريس بجامعة صنعاء ، ورغم اهتمامى هناك « باليمنيات » — أى بالدراسات اليمنية — التى غرقت فيها إلى أذنى ، نتيجة كرم أصدقائى اليمنيين الذين فتحوا لى قلوبهم وبيوتهم

---

(١) الدكتور لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، القاهرة ، دار الهلال ، كتاب الهلال ، العدد ٢١٥ الصادر فى فبراير ١٩٦٩ ، والعدد ٢١٧ الصادر فى أبريل ١٩٦٩ .

ومكتباتهم الخاصة ، لأنهل منها ما أشاء من « المعرفة والتعرف » بالنسبة لهذه الدراسات . ففى إحدى المناقشات التى دارت حول التراث اليمنى أواخر العام الدراسى ١٩٧٢/٧١ ، بينى وبين أخى وصديقى عبد الله الحبشى[١] ، بعد قضاء فترة من الزمن بين مخطوطات جامع صنعاء الكبير[٢] ، ذكر لى أنه عثر على مخطوطة يمنية تتضمن صفحات عن الحملة الفرنسية على مصر ، وأخبرنى بعنوان المخطوطة واسم مؤلفها . وهنا ثارت فكرتى القديمة عن

---

(١) هو عبد الله بن محمد الحبشى ، يعمل حالياً فى وظيفة أمين مكتبة بدار الكتب اليمنية بصنعاء ، وله ولع كبير بالتراث اليمنى رغم أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره . وهو من مواليد قرية « الغرفة » بحضرموت ، ومن أسرة الحبشى المشهورة بالعلم . وقد كتب العديد من المقالات المتعلقة بهذا التراث فى الجرائد والمجلات اليمنية ، كما نشرت له أخيراً وزارة الثقافة السورية (فى عام ١٩٧٢) كتاباً بعنوان « مراجع تاريخ اليمن » وهو عبارة عن قائمة هامة بالمؤلفات العربية — المخطوطة والمطبوعة — الخاصة بهذا التاريخ ، كما له مؤلف آخر تحت الطبع عن مؤلفات حكام اليمن ، ستقوم بنشره إحدى جامعات ألمانيا الاتحادية .

(٢) هو المسجد الجامع بالعاصمة اليمنية ، ويطلق عليه « الكبير » و « المقدس » ويقال إنه أول مسجد أسس باليمن ، إذ تأسس فى العام السادس من الهجرة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أدخلت عليه توسيعات وتعديلات كثيرة عبر التاريخ . (لمزيد من التفصيلات يرجع إلى كتاب : محمد بن أحمد الحجرى : مساجد صنعاء ، عامرها وموفيها ، مطبعة وزارة المعارف بصنعاء ، ١٣٦١ هـ ١٩٤٢ م ، ص ٢٣ — ٣٨) وتعتبر مكتبة جامع صنعاء الكبير أكبر مركز لتجميع المخطوطات اليمنية والإسلامية فى اليمن بوجه عام ، إذ تضم عدداً كبيراً من المجلدات تبلغ عدة آلاف . وتضخم عدد هذه المجلدات بعد ثورة سبتمبر ١٩٦٢ ، عندما ضم إليها عدة آلاف أخرى من مكتبات الإمام يحيى وأولاده ، وهى التى وضعت تحت اسم الكتب المصادرة . ومن المعروف أن عادة حفظ الكتب والمخطوطات فى أجزاء ملحقة بالمساجد إنما هى عادة إسلامية قديمة لا لأن المساجد هى أماكن العبادة والدراسة معاً فحسب ، بل لاعتبارها أماكن مقدسة بعيدة عن النهب والتخريب زمن الحروب والاضطرابات . غير أنه يلاحظ أن مكتبة الجامع الكبير هذه ينقصها بعض الإصلاحات حتى تقوم بواجبها على أكمل وجه ، فهى أقرب إلى المخزن منها إلى المكتبة وذلك لضيق المكان ، ولقلة الإمكانيات اللازمة لاستقبال الباحثين كما تفتقر المكتبة إلى فهرس حديث يعلن عما بها من نفائس نادرة ، وتحاول حالياً الهيئة العامة للآثار والكتب باليمن المشرفة عليها أن ترفع من إمكانياتها بقدر المستطاع .

كتابة دراسة مستقلة خاصة بالحملة ، ولكنها فى هذه المرة خضعت لفكرة جذابة أحدثت تعديلا فى جوهر الفكرة السابقة . وتمثل هذا التعديل حول ضرورة الاطلاع على ما كتب خارج مصر عن أحداث هذه الحملة ودراسته ، للتعرف على وجهة النظر العربية والإسلامية بالنسبة لهذه الأحداث، وللوقوف على ردود الفعل إزاءها لدى غير المصريين . فطالما اطلعنا على كتابات الجبرتى ، وطالما قرأنا كتابات الفرنسيين أو الأوربيين بوجه عام ، أما اطلاعنا على ما كتبه المعاصرين من العرب والمسلمين فهو شىء نادر فى الحقيقة ، فليس بين أيدينا من كتابات أبناء الجزيرة العربية سوى ما كتبه المؤرخ النجدى « ابن بشر[1] » ، وكتاباته قليلة للغاية ، سطحية تماماً ، بالنسبة لما كتبه مؤرخنا اليمنى ، كما سيتضح فيما بعد .

لكل ماتقدم ، بدأت أسعى للحصول على المخطوطة اليمنية ، للاطلاع على ماجاء بها عن الحملة الفرنسية ، والتعرف على ما كتبه المؤرخ اليمنى حتى أحدد قيمته العلمية ، وذلك قبل الإقدام على دراسته . غير أنى لم أستطع الحصول على هذه المخطوطة أو حتى مشاهدتها إلا فى العام الدراسى التالى (١٩٧٣/٧٢) ، نظراً لنظام الاطلاع والإعارة الصعب فى مكتبة جامع صنعاء الكبير ، ولضيق وقتى فى اليمن حينذاك ، إذ كنت مضطراً إلى السفر بعد وقت قليل إلى القاهرة لقضاء الإجازة الصيفية .

تعرفت من خلال حديثى مع الأخ عبد الله الحبشى كما ذكرت ، على المؤرخ « لطف الله بن أحمد جحاف » ، وعلى مخطوطته « درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور على وأعلام دولته الميامين » ، وأنها من محفوظات مكتبة جامع صنعاء الكبير . وهنا عملت على مقابلة الصديق والأخ الكبير

---

(١) عثمان بن بشر النجدى الحنبلى : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، الرياض ، مكتبة الرياض الحديثة ، د . ت . ، ط ١ ، جزءان فى مجلد ، ص ٢٥٥ ، ١٤٣ .

القاضى إسماعيل الأكوع(١) ، ليساعدنى على استعارة هذه المخطوطة لمدة أيام حتى اطلع عليها ، وأحدد النصوص المتعلقة بالحملة لأقوم بتصويرها . غير أنه أشار إلى عدم جواز إخراج محتويات مكتبة الجامع إلى خارجها ، ووعدنى باحضار نسخة أخرى من مكتبة أحد أصدقائه الذى عرف مؤخراً أن لديه نسخة خاصة . وقد تم احضار النسخة المشار إليها خلال استعدادى مرة أخرى للسفر إلى القاهرة ، ورغم ذلك فقد عملت جهدى للاطلاع عليها ، وللوصول إلى ما أبتغيه ، فحددت ما أصبو إليه من النصوص الخاصة بالحملة الفرنسية بعد جهد كبير ، نظراً لطبيعة النسخة هذه كما سيتضح فيما بعد ، ونظراً لضيق الوقت . إلا أن الجدير بالذكر هنا هو أنى قمت بهذا الجهد فى جو يسوده الاطمئنان ، إذ وجدت فى أول هذه النسخة نصاً يشير إلى أنها ملك السيد

---

(٢) هو القاضى إسماعيل بن على الأكوع ، ويشغل حالياً رئاسة الهيئة العامة للآثار والكتب وعضو مجلس لإدارة مركز الدراسات اليمنية ، كما شغل سابقاً منصب وزير الاعلام . ويعد أحد القلائل من المهتمين بالدراسات اليمنية وبالتراث اليمنى ، فقد أصدر من قبل مجلداً ضخماً عن الأمثال الشعبية اليمنية ، وله كتاب عن مدارس العلم فى اليمن ، وكتاب اعلام آل الأكوع . وهو ممن شاركوا فى الحركة الوطنية باليمن منذ وقت مبكر ، فقد قبض عليه للمرة الأولى عام ١٩٤٤ م فى مدينة « ذمار » عندما كان ينقل بعض الرسائل والمنشورات بين الأحرار فى تعز إلى إخوانهم فى صنعاء ، وكان حينذاك لا يتجاوز العشرين من عمره . وللامام يحيى مقولة فى هذه المناسبة بعد القبض عليه ، إذ علق على نحافة جسمه وصغر سنه بقوله « خبيث على البز ، نزعة على الحليب » ، ولما بلغ ذلك إلى القاضى عبد الله بن محمد العيزرى ، وكان من أعظم رجال اليمن علماً وورعاً ، قال « لا إله إلا الله ، لإسماعيل الأكوع هز دولة » مستنكراً اهتمام الدولة به وهو ضعيف الجانب ، ولما بلغ الإمام أحمد هذه العبارة عقب عليها بقوله : « ولماذا الاستغراب فهو لا يستهان به » واستشهد ببيت عمارة اليمنى :

قد هد قدما عرش بلقيس هدهد وخرب حفر الفأر سداً لمأرب

الوالد عبد القادر بن عبد الله بن عبد القادر(١) الذى تربطنى به وبأسرته علاقات وطيدة للغاية تسمح لى بالرجوع إلى هذه النسخة وقتما أشاء فيما بعد لاستكمال ماقد يفوتنى عند تصوير النصوص ، أوللتحدث عنها وعن محتوياتها إذا لزم الأمر .

وهنا جاء دور التصوير ، فاتجهت إلى صديق وأخى القاضى على أبو الرجال(٢) — بناء على طلبه — ليصور لى ماحددته من نصوص ، لا لقوة

---

(١) هو السيد عبد القادر عبد الله بن على بن عبد الرحمن عبد القادر ، ويشغل حالياً وظيفة « رئيس الاستئناف » وهو أكبر منصب قضائى فى اليمن ، وقد تدرج فى عدة مناصب قضائية منذ صغره ، إذ تولى منصب رئاسة المجلس النيابى نحو سبع سنوات فى أواخر عهد الإمام يحيى ، وفى عهد ابنه الإمام أحمد قام بالعمل فى عدة مناصب وزارية فقد عين نائباً لوزير المعارف ، ثم وزيراً للاقتصاد ، ثم وزيراً للعدل . ويعتبر الآن عميد أسرة آل عبد القادر ، وهى من الأسر الكبيرة المعروفة فى اليمن والتى تعمل فى مجال العلم والسياسة معاً ، فقد ظهر منها عدة علماء كبار منهم السيد عبد القادر ابن أحمد شيخ محمد بن على الشوكانى الذى يعتبره البعض شيخ الإسلام فى عصره ، كما لديها مكتبة خطية غنية بالنفائس ، وتولى أحد أفراد الأسرة منصب عامل (محافظ) صنعاء فى عهد الإمام يحيى ، وهو السيد حسين بن على عبد القادر ، كذلك شاركت الأسرة فى العمل الوطنى ، وقبض على رجالاتها بعد فشل ثورة ١٩٤٨ ، وسقط منهم شهيد بعد فشل ثورة ١٩٥٥ ، فقد أمر الإمام أحمد عقبها بإعدام السيد محمد بن حسين عبدالقادر .

(٢) هو على بن أحمد بن محمد أبو الرجال ، وكيل وزارة الأشغال العامة ، وعضو مجلس لإدارة مركز الدراسات اليمنية ، بل ويعد من أبرز مؤسسى هذا المركز اهتماماً بنجاحه وتطويره . ويشتهر بين رجالات اليمن الحاليين باهتمامه الشديد بالتراث اليمنى والحرص على تجميع شتاته من عادات وتقاليد وأغانى وشعر حمينى (شعبى) ، كما أنه يدأب على شراء وتصوير كل ما يتعلق بهذا التراث من مؤلفات مخطوطة ومطبوعة . وقد اهتم فى فترة سابقة بتقديم برامج إذاعية مدروسة عن التراث اليمنى وخاصة الجانب الاجتماعى منه ، كما كتب كثيراً فى جريدة الثورة (الجريدة الرسمية بصنعاء) عن الصناعات الوطنية لأنه من المهتمين والداعين إلى تشجيع هذه الصناعات . وهو من مواليد مدينة صنعاء فى عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٣ م) ، من أسرة يمنية كبيرة اشتهرت بالعلم والأدب والاشتغال بالإدارة والقضاء ، وظهر منها فى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ الميلادى) أحد العلماء الكبار هو أحمد بن صالح أبو الرجال صاحب كتاب « مطلع البدور » ، ويعتبر من أوائل وأهم الكتب اليمنية فى مجال التراجم ، كما ظهر فى نفس الفترة الأديب والشاعر المشهور على بن صالح أبو الرجال ، كذلك برز غيرهما من أبناء هذه الأسرة .

علاقتنا فحسب ، بل لتعلقه الشديد أيضاً بالتراث اليمنى ، ورغبته الأكيدة فى خدمته . وقد حصلت على صور النصوص على أفرخ من الورق الحساس وليس على ميكروفيلم ، فساعدنى هذا على نسخها فور وصولى إلى القاهرة . ومن خلال النسخ ، زاد فهمى وتقديرى لهذه النصوص ، وتعرفت على الثغرات التى تنقصنى لدراستها ، وعلى الجهود التى تنتظرنى لتحقيقها ونشرها نشراً علمياسليما . وهنا اتضح أنى لاأستطيع الاعتمادعلى ماصورته فقط ، بل لا بد من الرجوع مرة أخرى إلى النسخة الكاملة التى كنت قد تركتها فى صنعاء لدى أصحابها ، فأجلت العمل بهذه الدراسة مؤقتاً إلى حين العودة إلى اليمن فى العام الدراسى ١٩٧٤/٧٣ ، وشغلت نفسى بما يمكن أن أجمعه فى القاهرة من مادة علمية متعلقة بها .

وفى خلال هذه المدة كان الأخ عبدالله الحبشى قد نشر كتابه «مراجع تاريخ اليمن» ، وجاء به ذكر المؤرخ لطف الله جحاف ومخطوطته ؛ كما نشرت له مجلة «العرب» مقالا بعنوان «تاريخ الدعوة الوهابية من مخطوط يمنى»[1] ، فزاد هذا وذاك من رغبتى فى اكمال الدراسة الخاصة بالحملة الفرنسية ومن إضاءة الطريق أمامى للسير فيها .

ترجمة حياة المؤرخ :

وهنا تقفز التساؤلات التقليدية العديدة عن شخصية مؤرخنا اليمنى لطف الله جحاف ، وعن مخطوطته ، وعن أهمية مجموعة النصوص التى أقوم بنشرها ، وعن طبيعة النسخة التى اعتمدت عليها أولا ، وطبيعة النسخ

---

(١) مجلة العرب : المملكة العربيـة السعودية ، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، المجلد الأول ، السنة السابعة ، رجب ١٣٩٢ هـ أغسطس ١٩٧٢ م ، ص ٢٨

الأخرى التي تعرفت عليها بعد ذلك ، وغير ذلك من التساؤلات المتعلقة واللازمة بتحقيق « النصوص اليمنية عن الحملة الفرنسية على مصر ونشرها .

ومؤرخنا الذى نقف عنده هو « الفقيه العلامة الحافظ المؤرخ الفهامة لطف الله بن أحمد لطف الله بن أحمد جحاف اليمنى الصنعانى ، ومولده بصنعاء فى نصف شهر شعبان ١١٨٩ هـ (١٧٧٥م)[١]. وكما كان مولده فى صنعاء فقد نشأ وتلقى العلم بها ، من جماعة من علماء العصر منهم الشيخ العلامة السيد على بن إبراهيم عامر « والسيد العلامة على بن ابراهيم بن عبد القادر ، وغير هؤلاء من أعيان العلماء »[٢] . وكان من جملة هؤلاء أيضاً شيخ الاسلام العلامة محمد بن على الشوكانى ، صاحب المؤلفات العديدة التى اشتهرت على مستوى العالم الاسلامى ، والذى قدم لنا ترجمة وافية لتلميذه النابه لطف الله جحاف ، فقد قال عنه أنه « قرأ علىّ فى النحو والصرف والمنطق والمعانى والبيان والأصول والحديث ، وبرع فى هذه المعارف كلها، وصار من أعيان علماء العصر وهو فى سن الشباب ، ودرس فى فنون ، وصنف رسائل أفرد فيها مسائل ، ونظم الشعر الحسن وغالبه فى أعلى طبقات البلاغة ، وباحث كثيراً من علماء العصر بمباحث مفيدة يكتب فيها ماظهر له ثم يعرضها على مشايخه أو بعضهم ، ويعترض مافيه اعتراض من الأجوبة »[٣] . ويواصل

---

(١) محمد بن محمد زبارة : نيل الوطر من تراجم رجال اليمن فى القرن الثالث عشر ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(٢) محمد بن على الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

(٣) نفس المرجع : ص ٦١ .

الشوكانى الحديث عن تلميذه ، ويشيد بمقدرته على الحوار العلمى ، فيقول « وقد كتب إلى من ذلك بكثير بحيث لو جمع هو وما أكتبه عليه من الجوابات لكان مجلداً ، ولعل غالب ذلك محفوظ لديه وعندى منه القليل »(١) . كذلك أطنب الشوكانى فى وصف قدرات تلميذه العلمية وامكانياته الشخصية ، وذلك دون مبالغة أو زيادة ، إذ أبرز فى آخر الترجمة نواقصه وعيوبه دون مواربة فقد وصفه بقوله « وهو قوى الإدراك ، جيد الفهم ، حسن الحفظ ، مليح العبارة ، فصيح اللفظ ، بليغ النظم والنثر ، ينظم القصيدة الطويلة فى أسرع وقت بلا تعب ، ويكتب النثر الحسن والسجع الفائق بلا تروى(٢) ولا تفكر وهو طويل النفس ممتع الحديث كثير المحفوظات الأدبية ، لا يتلعثم ولا يتردد فيما يسرده من القصص الحسان ، ولا ينقطع كلامه بل يخرج من الشىء إلى ما يشبهه ثم كذلك حتى ينفض المجلس وإن طال ، وله ملكة فى المباحث الدقيقة مع سعة صدر ، وإذا رام من يباحثه أن يقطعه فى بحث لم ينقطع بل يخرج من فن إلى فن ، إذا لاح له الصواب انقاد له ، وفيه سلامة صدر زائدة بحيث لا يكاد يحقد على من أغضبه ، ولا يتأثر لما يتأثر غيره بدونه ، وهو الآن من محاسن العصر ، وله إقبال على الطاعة وتلاوة القرآن بصوته المطرب ، وفيه محبة للحق لا يبالى بما كان دليله ضعيفاً وإن قال به من قال ، ويتقيد بالدليل الصحيح وإن خالفه من خالف ، وهو الآن يقرأ علىّ فى صحيح البخارى ، وفى شرحى « للمنتقى » (لابن تيمية) ، وقد سمع منى غير هذا من مؤلفاتى وغيرها »(٣) . وبهذا الوصف الطويل العميق يضعنا

---

(١) محمد بن على الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ج ٢ ص ٦١ .

(٢) كذا فى الأصل وصحتها : بلا ترو .

(٣) محمد بن على الشوكانى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٦١ .

الشوكانى أمام شخصية علمية بكل ما تحمل هذه الكلمة من دلائل ، وخاصة لأنها صادرة من شيخ المؤرخ وأستاذه . ومن جانب آخر ، قدم لنا أحد تلاميذ المؤرخ ترجمة أخرى نقلها المؤرخ محمد زبارة ، فقد قال عاكش الضمدى « لقى عدة من علماء اليمن وغيرهم ، فاستفاد منهم وأفاد ، وكان جانحاً للخمول[١] ، زاهداً عن المناصب ، قانعاً باليسير من دنياه ، ثم هجر العلوم المتعارفة كلها كالصرف والنحو والمعانى والبيان ، وانقطع إلى كتاب الله تعالى ، واستخرج من اللطائف والمعارف البحر العباب ، وألف تفسيراً سماه « العلم الجديد »[٢] » . ويلاحظ أن هذا التلميذ المخلص قد أضاف إلى معلوماتنا شيئاً جديداً عن أستاذة يتمثل فى الإشارة إلى المؤلف الجديد الخاص بالتفسير الذى نبه إليه فى نهاية عبارته ، إذ أن هذا المؤلف لم يرد ذكره لدى من ترجم حياة لطف الله جحاف مثل الشوكانى وزبارة أو حتى كحالة فى كتابه « معجم المؤلفين » عند ذكره لمؤرخنا هذا[٣] .

نخرج من هذا كله أن لطف الله جحاف كان صنعانى المولد والنشأة — بل والاقامة حتى الوفاة — فأفاده هذا فى أن يكون قريباً من رجال العلم فنهل من علمهم ماشاء ، وفى أن يكون قريباً من رجال الحكم والسياسة فاتسمت مداركه وخبراته بالحياة ، وأخرج لنا مؤلفاته التاريخية الكبيرة التى سنتحدث عنها فيما بعد . ويتضح لنا هنا أيضاً أن مؤرخنا هذا كان يتمتع بكل الصفات التى تتمتع بها الشخصية العلمية ، مثل دقة البحث ، والاتصال بمعاصريه من العلماء والحوار معهم ، والبحث عن الحقيقة مهما كلفه ذلك

---

(١) يقصد أنه كان بعيداً عن حب الظهور .

(٢) محمد بن محمد زبارة : نيل الوطر من تراجم رجال اليمن فى القرن الثالث عشر ، ج ٢ ص ١٨٩ .

(٣) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، تراجم مصنفي الكتب العربية ، ج ٨ ، ص ١٥٣ .

من جهد ، وسعة الصدر للوصول إليها ، وتقبله للنقد دون خوف ، مع سعة الاطلاع على علوم عصره ، وقدرة على الحفظ والفهم ، وغير ذلك مما شهد به أستاذه الشوكانى .

وقد أفادته الحياة فى صنعاء أيضاً بتوطيد علاقته بحكامها مثـــل الوزير الحسن بن على حنش والإمام المتوكل ثم ولده المهدى ، فقد كانت تسودها الود والتقدير والاحترام ، وإن أثار هذا حسد وحقد زملائه من العلماء والفقهاء كما سنرى . وقد صور لنا الشوكانى جانباً من هذه العلاقات بقوله : « وقد اختص بالوزير العلامة الحسن بن على بن حنش وصار لديه بمنزلة ولده لا يفارقه فى غالب الأوقات ، وتستمر المباحثة بينهما فى عدة فنون ، وإذا طال بينهما الخلاف أشركانى فى البحث وأرسلا إلى بما تحصل من ذلك فأكتب ما يظهر وأرجعه إليهما »(١) . وفى مجال آخر يذكر أن : « صاحب الترجمة ـ أى مؤرخنا ـ صار الآن متصلا بمولانا الامام المتوكل على الله أحمد بن المنصور وله عنـــده حظ وافر(٢) » .

ويعنى ماسبق أن لطف الله جحاف لم يكن صنعانيا يعيش الحياة الزاخرة التى تموج بها دائماً حياة العواصم فحسب ، بل أيضا عاش عند قمة الحياة العلمية والسياسية فى صنعاء ، فانعكس هذا من ناحية على انتاجه العلمى الذى خلفه لنا كما سنرى ، كما انعكس من ناحيه عـــلى علاقاته بزملائه العلماء أو بمعاصريه من القادة والحكام . وشأنه فى ذلك شأن من يصل إلى القمة دائماً ، إذ تظل حياته تتقاذفها رياح الشد والجذب ، وتحيطها مشاعر الحب

---

(١) محمد بن على الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ج ٢ ص ٦١ و ٦٢ .

(٢) نفس المرجع .. ص ٦٩ .

والعداء، وتعبث بها تيارات الود والصدام . وقد حدث هذا لمؤرخنا بوضوح فقد هاجمه شيخه وأستاذه الشوكانى فى نهاية الترجمة التى قدمها له هجوما عنيفاً لاذعاً، ووصفه بصفات مشينه غير لائقة . فقد اتهمه بأنه استغل علاقته بالحكام والأئمة فى الوشاية بأصدقائه ومعارفه بل وأقرب الناس اليه مثل الوزير الحسن بن على الحنش، كما مال إلى الترفع والتعالى على من كان يتقرب اليهم من قبل من هؤلاء الأصدقاء، بل ووصل إلى حد مكاشفة من يقدر على مواجهته بالمكروه، أو الدس فى السر ضد من لم يقدر على مواجهته . وزادت مساوئه - كما يقول الشوكانى - فى أنه سمح لنفسه بالتعدى على «الوصايا والأوقاف فيأخذ أكثرها لنفسه ويحرم الضعفاء من مصارفها ويصول عليهم بالاتصال بالامام (المتوكل)»[1] . ويواصل الشوكانى قذفه له فاتهمه بأنه وصل إلى درجة الغرور العلمى، وإلى محاولة الظهور باستمرار ولو عن طريق الجدل المجرد والمغالطة فى المسائل العلمية إلى الحد الذى كان يضحك الناس منه، والى أنه كان لا ينتصح بنصائح شيخه، حتى وصل الأمر إلى أنه «صار يتكلم فى مواقف الامام بمسائل فيها الترخيص فيما حرمه الله تحببا وتقربا بحيث أن السامع اذا سمعه اقشعر جلده، وكان يتجنب ذلك فى حضورى كثيراً ويفعله إذا غبت»[2] . وقد تصاعدت التهم المنسوبة إلى مؤرخنا حتى اشتهر عنه أنه اشتغل بالجاسوسية لحساب الامام المتوكل حتى على وزرائه، وأنه ربط نفسه بوزراء السوء يداهنهم ويتملقهم، وذلك بعد وفاة الامام المتوكل وتولى ابنه المهدى الحكم بعده، إذا لم تكن له المكانة لدى المهدى كما كانت له لدى والده المتوكل حتى أن هؤلاء الوزراء استعملوه لخدمة أغراضهم الخاصة فنسبوا إليه ما يناسب أطماعهم من الفتاوى الشرعية.

---

(١) محمد بن على الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جـ ٢ ص ٦٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٠ .

ولاشك أن هذه التهم تشين مؤرخنا إذا صحت ، وتجعلنا نقف عندها بعض الوقت ، ذلك لأن الصفات الشخصية تسحب نفسها فى أغلب الأحيان على الانتاج العلمى لصاحبه وتؤثر فيه ، وهذا هو مايهمنا من وراء إثارة قضيه التهم الموجهة إلى مؤرخنا هذا ، التى ذكرها معاصره الشوكانى .

ويبدو أن الشوكانى هنا قد تناقض مع نفسه ، فقد ذكر عن لطف الله جحاف فى بداية ترجمته مايختلف تمام الاختلاف عما ذكره فى نهايتها ، ويبدو أيضاً أنه أدرك ذلك ، فدافع عن نفسه بقوله : « وماذكرت ههنا لاحقا . كما أنى ما ذكرت فى أول الترجمة لاحقاً ، ولكن اختلفت الأحوال فاختلف المقال ، وبعد مضى قريب سنتين من خلافة مولانا الامام المهدى أودعه الحبس وتشفعت له فأطلق ، وأبعده من حضرته فالله يصلحنا ويصلحه »[1] . فهو يؤكد هنا صدق موقفيه ، أى عندما أشاد بمحاسن لطف الله جحاف فى البداية ، وعندما أبرز مساوئه فى النهاية ، ولكنه فى نفس الوقت يعزو ما حدث من تغيير فى صفات مؤرخنا وسلوكه إلى تغيير الظروف والأوضاع التى مر بها المؤرخ وعاشها والتى قادته بمعقدها وتناقضاتها إلى الهوة التى انتهى اليها فى أخريات حياته .

وتفسير الشوكانى هذا فيه شىء كبير من الصحة فتغير الظروف فى أغلب الأحيان يؤدى إلى تغير الأوضاع ، وخاصة لما عرف فى النفس البشرية من ضعف ، كما تكرر عبر التاريخ انحراف بعض العلماء عن جادة الصواب ، لانزلاقهم فى مهاوى السياسة ، أو لجوحهم فى جمع الثروات . وربما كان الشوكانى محقا فى بعض ما اتهم به لطف الله جحاف وخاصة من ناحية ما أصابه من غرور ومايؤدى إليه من سقطات ، فمؤرخنا حقق ما حققه من نجاح

---

(١) محمد بن على الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ٢ ص ٧١ .

علمى وسياسى فى وقت قصير، إذ توفى وهو لم يتجاوز من العمر أربعة وخمسين عاما . غير أنا نشتم من حديث الشوكانى الكثير من المبالغة إذ أن أغلب المساوىء التى عددها عن تلميذه وصلته عن طريق الاستماع، وليس عن طريق المشاهدة العينية أو المواجهة، وذلك كما اعترف هو فى حديثه سالف الذكر أن لطف الله جحاف كان يتجنب الافتاء غير الصحيح فى حضوره، وأنه ظل يكن لأستاذه الاحترام العميق ويطلق عليه شيخ الإسلام . ومن ناحية أخرى، فان الانتاج العلمى الغزير والعميق الذى تركه مؤرخنا يجعلنا نشك فى أنه تفرغ للدسائس ومؤامرات القصور، إذ أن هذه الأمور تحتاج من أصحابها الوقت الطويل والتفرغ لحبكها . وربما ترجع مبالغة الشوكانى — التى نقف عندها — إلى ماذهب اليه الأخ عبد الله الحبشى، إذ قال : « ولا نجد لهذا سبباً سوى أنه لما ارتفعت مكانة العلامة لطف الله جحاف وأصبح من علماء الدولة الكبار داخل الشوكانى مانعهده عند أصحاب الحرفة الواحدة من حقد وغيرة »(١).

وأخيراً فقد كانت وفاة لطف الله جحاف فى صنعاء أيضاً فى عام ١٢٤٣هـ (١٨٢٧م)(٢).

مؤلفاته ومنهجه التاريخى :

وقد ترك لنا — عند وفاته — تراثا كبيراً كما أشرنا، يتمثل فى عدة مؤلفات ذكرها من ترجم له(٣)، كما ذكر هو بعضها - مع قليل من الوصف

---

(١) عبد الله الحبشى : تاريخ الدعوة الوهابية من مخطوط يمنى، مجلة العرب، المجلد ١، السنة السابعة، رجب ١٣٩٢هـ، أغسطس ١٩٧٢م، ص ٢٩، ٣٠ .

(٢) محمد بن محمد زبارة : نيل الوطر من تراجم رجال اليمن فى القرن الثالث عشر، ج ٢ ص ١٩١ .

(٣) نقصد بصفة خاصة كل من محمد بن على الشوكانى ومحمد بن محمد زبارة .

والتعليق ـ خلال مقدمة كتابه « درر نحور الحور العين »(١). غير أننا لم نستطع الاطلاع عليها جميعها لعدم تواجدها بين الأيدى الآن ، أما لضياعها عبر السنين والأحداث ، واما لاختفائها فى المكتبات الخاصة داخل البيوت .

ويلاحظ أن مؤلفات لطف الله جحاف تعكس طبيعة العلم والثقافة فى عصره فكما كان تعليمه موسوعيا ، فقد كانت مؤلفاته كذلك ، إذ ألف فى التاريخ والحديث والفقه والتفسير والأدب ، كما نظم الشعر الجيد بشهادة أستاذه الشوكانى . فله كتاب « المرتقى إلى المنتقى » شرح فيه كتاب « منتقى الآثار » لابن تيمية ، ويوجد الجزء الأول منه بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، ويقع فى ٢٥٠ ورقة ، ويبدو أن هذا الشرح نتاج قراءته لكتاب « المنتقى » مع شيخه الشوكانى كما جاء فى الترجمة الخاصة به . وله كتاب « ديباج كسرى فيمن تيسر من الأدب لليسرى » وكتاب « العباب فى تراجم الأصحاب » ، وهو كتاب تراجم كما يتضح من عنوانه ، وقد قال عنه فى مقدمة كتابه « درر نحور الحور العين » أن : « فيه ما فى هذا الكتاب من الأعلام وغيرهم من أولى النهى والأحلام »(٢) . وله كتاب بعنوان يلفت النظر هو « فنون الجنون فى جنون الفنون » ، ويبدو أنه كتاب فى النقد ألفه فى أخريات حياته كما يظهر من العبارة التى أشار فيها اليه فى مقدمة كتاب « درر نحور الحور العين » أيضاً ، فقد قال : « ذكرت فيه عدة من الأكابر واعترضت كثيراً من معارفهم التى أودعوها بطون الدفاتر »(٣) . وله كتاب « قرة العين بالرحلة إلى الحرمين » وقد كتبه بعد حجته عام ١٢١٧ هـ ، وهو ليس من قبيل كتب أدب الرحلات فحسب ، بل ترجع أهميته إلى مادته العلمية أيضاً ، وقد وصفه صاحبه فى المقدمة سالفة الذكر أيضاً بقوله : « وهو على صغر حجمه مفيد فى أخبار

---

(١) المقدمة : ص ١٣أ ، ٣ب . (النسخة الثانية) .

(٢) مقدمة المؤلف لكتاب « درر نحور الحور العين » : ص ٢ ب (النسخة الثانية) .

(٣) مقدمة المؤلف لكتاب « درر نحور الحور العين » ص ٢ ب (النسخة الثانية)

الامم (١)، . وله كتاب فى التفسير أيضا ،وهو الذى أشار اليه تلميذه عاكش الضمدى ، بعنوان « العلم الجديد » ، كما سبق أن رأينا خلال الترجمة .

أما كتاباته التاريخية فقد سطرها فى كتابين كبيرين ، الأول بعنوان « التاريخ الجامع(٢) » ،وهو الذى أكمل فيه ماوضعه السيد على بن صلاح الدين الكوكبانى من كتاب «أبناء الزمن فى تاريخ اليمن» ليحيى بن الحسين بن القاسم، وقد أوصل لطف الله جحاف فى هذا الكتاب تاريخ بلاده إلى عهد الإمام المهدى الذى عاصره . والكتاب الثانى بعنوان « درر نحور الحين بسيرة الامام المنصور وأعلام دولته الميامين » ، وهو الكتاب الذى استخرجنا منه النصوص الخاصة بالحملة الفرنسية على مصر ، ويقع فى مجلد تتجاوز صفحاته الخمسمائة .

ولأهمية هذا الكتاب ، ولإعتمادنا عليه فى هذه الدراسة ، فهو يحتاج إلى نظرة خاصة نبرز فيها محتوياته ومنهجه وفهم مؤلفه للتاريخ إلى جانب أسلوبه وغير ذلك من المعلومات المتعلقة به حتى تتضح أمامنا شخصية المؤرخ وطبيعة كتابه .

تؤكد كتابات لطف الله التاريخية ـ كما يتضح من كتابيه سالفى الذكر أن صاحبها كان ابنا مخلصاً لمدرسة التاريخ الاسلامية التى كانت سائدة إلى عصره ، بل وظلت متبعة فى اليمن بوجه خاص إلى سنوات قريبة ، وتتصف هذه المدرسة بتقسيم الأحداث حسب الحوليات ، والاهتمام بذكر الأخبار وتوثيقها ، مع ترتيبها ترتيباً زمنياً ومع قليل من التعليق ، أكثر من الاهتمام

---

(١) نفس المقدمة : ص ٣أ . (النسخة الثانية) .

(٢) ذكر لى القاضى حسين السياغى وكيل وزارة العدل اليمنية وعضو مجلس إدارة مركز الدراسات اليمنية أن هذا الكتاب كان مشهوراً بين المهتمين بالتاريخ بعنوان « الأحداث » .

بموضوعية الحوادث ، وبربط الأحداث وتحليلها وتفسيرها . فقد التزم مؤرخنا — كما فعل معاصروه مثل عبد الرحمن الجبرتى — بتقسيم كتاباته التاريخية إلى سنوات . وليست إلى أبواب وفصول ، وأصبحت السنة هى عنوان الفصل أو البديل له فى الواقع . وقد اضطره ذلك — كما فعل معاصروه أيضاً — إلى تقسيم الموضوع الواحد إلى مجموعة من الأخبار والأحداث حسب وقوعها ، فيذكر الموضوع مفتتا طبقاً للترتيب الزمنى دون التمسك بالوحدة الموضوعية . وتبعاً لذلك — وتوخيا للدقة — نجده يقسم السنوات إلى شهور ، والشهور إلى أيام ، وخاصة بالنسبة للأحداث القريبة منه ، أو التى عاصرها ، وخاصة أنه كان قريباً من رجال السلطة والسياسة كما ذكرنا فى ترجمته . ونتيجة لهذا كله ، فقد وقع الخلط فى كتاباته التاريخية بين الأحداث الداخلية الخاصة باليمن ، وبين أحداث البلدان الأخرى — أى الأحداث الخارجية — التى اهتم بتتبعها وتسجيلها .

هذه هى الملامح العامة للمدرسة التاريخية التى تأثر بها لطف الله جحاف وهذا هو منهجه الذى التزم به فى كتابه « درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور على وأعلام دولته الميامين » . وهو كما يتضح من عنوانه خاص بتاريخ اليمن فى عهد الإمام المنصور على بن المهدى العباس ، مع ذكر تراجم رجالات دولته فى نهاية كل عام . وطبقا لالتزامه بالمنهج التاريخى السائد فى عصره ، فقد قسمه إلى مقدمة وعدة أقسام حسب سنوات عهد الإمام المنصور الممتدة من ١١٨٩هـ إلى ١٢٢٤هـ (١٧٧٥ — ١٨٠٩ م) . وجعل كل سنة وكأنها فصل قائم بذاته ، ولم يجعل مؤرخنا كتابه وقفا على تسجيل أخبار اليمن الداخلية فى تلك الفترة ، بل زوده بما كان يصله — أو يسمعه أو يقف عليه — من أخبار العـــالم الإسلامى ، شأنه فى ذلك شأن المؤرخين المسلمين الكبار الذين تجاوزت كتاباتهم أخبار بلدانهم المحلية . وقد جمع — كما أشرنا — فى سياق واحد بين أحداث اليمن المحلية ، وبين

الأخرى الخارجية ، نظراً لالتزامه بمنهج الحوليات . لهذا فقد عثرنا على أخبار الحملة الفرنسية على مصر ـ على سبيل المثال ـ متناثرة بين باقى الأحداث مما اضطرنا إلى التنقل بين صفحات الكتاب لالتقاط مجموعة النصوص الخاصة بها .

وقد أشار المؤرخ فى المقدمة إلى « شمولية » كتابه ، وأنه لم يقصره على أخبار اليمن فحسب ، فقال : « ولم اقتصر على حوادث اليمن ، ولاحبست التراجم على من بهذا القطر قطن ، بل ذكرت من عارض المنصور من الصدور ، وشرحت كثيراً من أحوال أهل الآفاق الحرية أخبارهم بأن تفرد بمسطور ، وذكرت عدة حوادث من التهايم والجبال والحجاز والحرمين والعراقين ومصر والشام والروم والسند والهند والغرب بعد الفحص والتفتيش ، والبحث الكامل عما حصل فيه التشويش »(١) . ولاشك أن اهتمام لطف الله جحاف بتقصى أخبار العالم الاسلامى وتسجيله زاد من أهمية وعمق كتابه ، وجعله يضاهى الكتب التاريخية الكبيرة التى عاصرته ، بل لانبالغ إذا ذهبنا إلى أن مؤرخنا يقف على قدم وساق مع مؤرخ كبير مثل عبد الرحمن الجبرتى فى مصر من حيث القدرة على التأليف ، وأن قل عنه من حيث الشهرة والسمعة . ولايرجع ماذهبنا إليه إلى مادونه المؤرخ اليمنى من أخبار العالم الاسلامى فحسب ، بل يرجع أيضاً إلى قدرته على التسجيل والتقصى والتدقيق بالنسبة لأخبار اليمن المحلية . فكتابه هذا يعتبر سجلا وافيا مفصلا لتاريخ اليمن فى عهد الامام المنصور ، أو بمعنى آخر لمدة خمسة وثلاثين عاما من تاريخ اليمن . فهو لم يترك شاردة أو واردة إلا وأحصاها ، فقد تتبع منازعات الامام المنصور مع القبائل المختلفة لتدعيم سلطته واهتم بذكر أخبار العزل والتولية لموظفى الدولة

---

(١) المقدمة : ص ١٣أ . النسخة الثانية .

وبذكر إيرادات الدولة ومصروفاتها بل ويذكر أحوال اليمن المناخية وخاصة سقوط الأمطار إلى غير ذلك من التفصيلات المتنوعة التى تغنى تاريخ اليمن فى تلك الفترة أيما إغناء . ويذكرنا هذا المؤرخ وكتابه القيم بما انتهينا اليه من رأى قبل ذلك [1] ، وهو أن اليمنيين قد كتبوا تاريخ بلادهم — بشكل واف عميق — على طول فتراته وخاصة الفترات الاسلامية وإلى عهد قريب ، وإن بقى هذا التراث الكبير مخطوطا متناثرا إلى الآن ينتظر الجمع والدراسة.

وقد رسم مؤرخنا أيضاً منهجه بالنسبة للتراجم التى أثبتها فى هذا الكتاب ، فقال - بعد أن ذكر منهجه بالنسبة للتراجم فى كتبه الأخرى - « وإنما أذكر فى هذا من عرفت وفاته ، وقد أذكر مولده إن تيسر ، وربما سنح ذكر رجل من الأحياء ، ودعت الحاجة فيما يتعـــلق به من أشياء ، ولكنه على سبيل الندرة ، وقد ذكرت الأفاضل الذين أدركتهم ، وشاهدتهم ، وأخذت عنهم ومن كان فى زمنى أو تقدم قليلا من الملوك والأمراء والوزراء ، وغيرهم ممن لهم شهرة ظاهرة ليطلع على أحوالهم من يأتى بعدى ، وقيدت من الألفاظ مالا يؤمن فيه التصحيف على الظريف ، وذكرت لأهل التراجم ماسمعت منهم ، أو حدثنى الغير عنهم ، وجمعت فى الأخبار مابين فائدة وعائدة ، وحلم وجهل ، وجد ومجون ومعقول وجنون ، ومنظوم ومنثور ، ومضحك ومبك ، وموعظة ونسك ، وأثبت ماوقع من مكاتبة الملوك والطوائف [2] » ، ثم يواصل حديثه فيشير إلى من اعتنى بالتراجم فى عصره - مثل القاضى العلامة أحمد بن محمد قاطن وشيخ الإسلام العلامة البدر محمد بن على الشوكانى ، والسيد العلامة عبد الله بن عيسى بن محمد بن حسين صاحب كوكبان ، والعلامة ابراهيم بن عبد الله الحوثى ، والعلامة على بن قاسم حنش - وفى واقع الأمر فإن ذكره

---

(١) راجع كتابنا : « المؤرخون اليمنيون فى العهد العثمانى الاول » .

(٢) المقدمة : ص ٢ ب (النسخة الثانية) .

لهؤلاء يعبر عن أمانته العلمية ، فهو لم يغمط حقهم ، بل على العكس أبرز أسماءهم وأشاد بمؤلفاتهم(١) .

وإلى جانب « الشمولية » التى لمسناها لمؤرخنا من خلال كتابه هـذا كما أشرنا ، فيمكن أن نصفه أيضاً « بالعلمية » ، التى استطاع أن يؤكدها بوضوح كذلك . فقد رسم خلال مقدمته أيضاً الغرض من تأليف الكتاب ، ومنهجه فيه ، بل وتواضع فى تقديم كتابه التواضع العلمى المطلوب من العلماء ، ثم التزم بمنهجه طوال الكتاب التزاماً دقيقاً ، هذا بالإضافة إلى دقته وعمقه فى تقصى الحقائق كما يتضح من بين صفحات وسطور الكتاب . فقد قال فى المقدمة: « أما بعد ، فهذا مختصر لطيف ، ومؤلف نحيف(٢) ، لم يسألنى أحد أن أضعه ، ولا عول على فرد من الناس أن أجمعه ، مقصور على دولة الإمام المنصور ، فى حوادث أعوامه والشهور ، واتبعت فيه من يستحق الإثبات فى مسطور ، وربما ذكرت من لا أعلمه بالحال المشهور :

لعلى أن غيرى عنده من عجائبه التى خفيت غرائب

وربما قال القائل قصرت فى فلان ، وطولت فى فلان ، وأهملت فلان ، مع أنى لو بلغت فى وصفهم الغاية التى لا تدرك ، لم أسلم من القيل والقال على كل حال ، والضعف من شأن ابن آدم فيما فعل وقال ، وإنك أيها المطلع ربما رأيت ما لا تستحسن ، ووقفت على ما تجزم بأنى فيه مسىء غير محسن ، فاعذرنى فإنى لست بالرجل ، وسل الله لى العافية وقل :

غفر الله للمؤرخ لطف الله فيما جنـــاه بين يديه
وعفا عنه كل ما كان قد فر ط فى دهره وعن والديه

---

(١) المقدمة : ص ٢ ب ، ٣ أ (النسخة الثانية) .

(٢) مزيد من تواضع المؤرخ ، فكتابه عبارة عن مجلد ضخم .

وعا عنه سيئآت ولاتؤا   خذه فيا فيـــه فاه بفوه

وتجاوز فيما وقفت عليه من الغلط ، فربما كثر فى الشخص اللغط ، وتباينت عند المؤرخ الأوصاف فى ذلك النمط ، فأقام من أقعده الحظ وحط وأقعد من أقامه الملا فى الوسط :

فإذا قلـــت فى فتى   غـــير مافيه من لغط
فأنـــا عائـــد على   النفس باللوم فى الغلط

وقد أثبت لك أيدك الله بتوفيقه ، وجعلك من خاصة الخلاصة فى فريقه ، أموراً جمة من حوادث السنين ، وذكرت لك كثيراً من الأحوال الأدباء والعلماء والمتعلمين والعمال والمتولين ، ولم أدع الإحصاء ، ولا أن الخبر كان بهذا الدفتر مستقصى ، وإنما جعلته للإيقاظ وقرع العصى ، على أنى لقصور باعى ، وقلة اطلاعى ، لو جاريت غيرى لقصرت فى سيرى»(١) . وهكذا يواصل المؤرخ عرض منهجه فى أسلوب متواضع يعتذر فيه عن التقصير وعدم الإجادة . ومما يلفت النظر بالنسبة للمؤرخ ويزيد من تقديرنا له ولقدراته العلمية ، هو صفاء ذهنه الذى ظهر فى التزامه بالمنهج الذى رسمه لنفسه طوال صفحات الكتاب ، فهو يرى أن كتابه كتاب أحداث وأخبار وليس كتاب تراجم ، وأن التراجم التى حرص على ذكرها إنما يضعها فى نهاية أحداث كل عام كعادة غيره من المؤرخين المسلمين ، وأنه لا يريد الخلط بين الأحداث والتراجم فتضيع هذه بين تلك أو العكس بالعكس . لهذا — وعلى سبيل المثال — نراه ينوه إلى ذلك عندما اضطر إلى الخروج عن منهجه كما أشار بنفسه فى ثنايا أحداث عام ١٢١٣ هـ ، فقد قال : « وفى أول رجب من هذا العام نصب

---

(١) المقدمة : ص ١ ب ، ٢ أ (النسخة الثانية) ، ويلاحظ أن بعض أبيات هذا النص مكسورة غير موزونة ، وبعض الكلمات غير معربة إعراباً صحيحاً .

الإمام لفصل الختام على بن عبد الله الجلال الهاشمى وأحمد بن يوسف زبارة الهاشمى وضمهما إلى من بالديوان من الحكام[1]، وعند ذكرنا لهما ترجمناهما، وإن كان على غير شرطنا فى هذا الكتاب[2]، فهو فى العبارة الأخيرة ـ كما يتضح ـ يعتذر عن الخروج على المنهج الذى رسمه لكتابه، مع الإشارة إلى هذا الخروج فى حينه.

اختيار النسخة الأم :

وإلى هنا ربما يكون قد اتضح أمامنا ترجمة حياة المؤلف، ثم مؤلفاته بوجه عام، ومؤلفاته التاريخية بوجه خاص، كذلك المدرسة التاريخية التى انتمى إليها مؤرخنا، وفهمه لمعنى التاريخ، ومنهجه فى التأليف التاريخى ومدى التزامه به، وأخيراً منهجه وأسلوبه اللذين التزم بهما فى كتابه الهام «درر نحور الحور العين». غير أنه يبقى الآن التحدث عن طبيعة نسخ هذا الكتاب التى عثرت عليها، وكيف حددت النسخة الأم منها، والأساس الذى بنيت عليه اختيارى لها، مع المقارنة بينها وبين النسخ الأخرى، وذلك قبل التحدث عن محتويات النصوص التى أقوم بنشرها.

وبوجه عام يحتاج تحقيق إحدى المخطوطات ونشرها نشراً علمياً إلى حصر النسخ المختلفة لهذه المخطوطة إذا تعددت، وترتيب هذه النسخ بناء على أهميتها، ثم مقارنتها بعضها ببعض. وتتوقف هذه الأهمية على أساس قربها من المؤلف أو بعدها عنه، وطبقاً لذلك تعتبر أهم نسخة من نسخ إحدى المخطوطات هى النسخة التى كتبها المؤلف بخطه وتعد النسخة الأصلية، وهى التى يعتمد عليها ـ إذا وجدت ـ عند التحقيق. ويلى هذه النسخة من حيث الأهمية، تلك التى نسخت فى حياة المؤلف، وأثبت بخطه أنه اطلع عليها،

---

(١) مازال إلى الآن فى اليمن يطلق لقب حاكم وحكام على القاضى والقضاة الشرعيين، أما الحاكم المدنى فيطلق عليه لقب «عامل» وهى ألقاب ترجع إلى العصور الإسلامية.

(٢) كتاب درر نحور الحور العين : ص ٢٠٨ (النسخة الأولى).

أو وضع بها بعض التصحيحات أو التعليقات ، وتأتى بعد هذه النسخة أهمية، النسخ التى نقلت عن نسخة المؤلف فى حياته ثم التى بعد وفاته ، وفى الحالة الأخيرة تفضل التى يقترب تاريخ نقلها من عهد المؤلف على غيرها من النسخ المتأخرة من عهده ، إلا إذا توفرت شروط أخرى مثل جودة نسخها ، أومثل الثقة فى ناسخها ، كأن يكون عالماً متخصصاً فى موضوع المخطوطة التى ينسخها.

وعلى هذا الأساس ، وعلى ضوء ماجاء بكتاب الأخ عبد الله الحبشى وهو « مراجع تاريخ اليمن »(١) ، فإنه كان لزاماً معاملة النصوص الخاصة بالحملة الفرنسية على مصر - عند النشر والتحقيق - معاملة المخطوطات ، وذلك لتعدد النسخ المخطوطة من كتاب « درر نحور الحور العين » . فقد جاء فى كتاب «مراجع تاريخ اليمن » ذكر لمؤرخنا لطف الله جحاف مع ذكر لكتابه سالف الذكر، وأنه يوجد منه ثلاث نسخ مخطوطة ، اثنتان فى مكتبة جامع صنعاء الكبير ، والثالثة بمكتبة الحبشى « بالغرفة » بحضرموت ، وفى نفس الوقت لم يأت ذكر نسخة السيد عبدالقادر بن عبدالله التى بيدى ، بل وفوجىء الأخ عبدالله الحبشى بوجودها إذ لم يكن يعلم عنها شيئاً . فدل هذا كله على تعدد نسخ هذه المخطوطة وعلى أنه من الضرورى حصر هذه النسخ والاطلاع على ما أمكن منها ، ومقارنة بعضها ببعض .

وفى رحلة البحث عن نسخ هذه المخطوطة فى الفهارس العامة للمراجع العربية ، وبين الأصدقاء اليمنيين . لم تكشف هذه الفهارس عن وجود نسخ أخرى بالمكتبات المختلفة (٢) ، وفى نفس الوقت عثرت على نسخة أخرى لدى إحدى الأسر اليمنية .

---

(١) عبد الله الحبشى : مراجع تاريخ اليمن ، ص ١٢٨ .

(٢) مما يؤكد أن التراث اليمنى مازال مجهولا مبعثراً وأنه يحتاج إلى الجهود الكبيرة لجم شتاته ولإعداده للدراسة ، أن مخطوطة « درر نحور الحور العين » التى تعتبر إحدى =

سبق أن أوضحت كيف حصلت على نسخة السيد عبد القادر بن عبدالله،

= نفائسه ، ظلت حبيسة المكتبات الخاصة لدى الأسر اليمنية الكبيرة حتى الآن ، ولم تعرف طريقها إلى المكتبات العامة أو إلى خارج اليمن إلا مؤخراً على يد بعثة دار الكتب المصرية التى زارت اليمن عام ١٩٦٥ ، وصورت بعض المخطوطات اليمنية على ميكروفيلم ، بل وزيادة على ذلك أن النسخة التى صورتها هذه البعثة أقل أهمية من النسخ الأخرى التى عثرت عليها وأقوم بدراستها حالياً اذ أنها كتبت بعد قرن من الزمان من وفاة مؤلفها ، كما أوضحت فيما بعد عند الحديث عن ترتيب هذه النسخ من حيث الأهمية . فهذه المخطوطة لم تظهر فى فهرس مكتبة جامع صنعاء الكبير الذى سبق إعداده فى عهد الامام يحيى (١٩٠٤ — ١٩٤٨ م) كما لم تظهر فى فهارس المكتبات الأجنبية والعربية التى تعنى باقتناء المخطوطات العربية والتى رجعت إليها بدار الكتب اليمنية بصنعاء ، مثل فهارس المتحف البريطانى ومكتبة الأمبروزيانا ومكتبة صوفيا الوطنية البلغارية ، ومعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية ودار الكتب المصرية والمكتبة الظاهرية بدمشق . وبالاضافة إلى ذلك فإن النسختين اللتين عرفتا طريقهما إلى مكتبة الجامع الكبير واللتين أشار إليهما عبد الله الحبشى فى كتابه لم يعرفا هذا الطريق إلا بعد ثورة ١٩٦٢ ومصادرة مكتبات الأئمة وأبنائهم .

أما الفهارس التى عدت إليها للبحث عن هذه المخطوطة فهى :

— Cataloge Dei Manoscaitti Arabi Dei Nuovo Fondo Della Biblioteca Ambrosiana Di Milano, Compilato Dal Dott. Eugenio Griffini, Volume I., Codici I – 475., Roma, 1910 – 1919.

— Catalogus Codicum Manuscriptorum Orientalium Qui Museo Britannico Asservantur, Pars Secunda, Codices Arabicos Amplectens, Londini, Lmpensis Curatorum Musei Britannici, MDcccLxxi.

— Supplement To the Catalogue of the Arabic Manuscripts in The British Museum, by Charles Rieu, PH D., London, 1894.

— دار الكتب المصرية : فهرست المخطوطات ، نشرة بالمخطوطات التى اقتنتها الدار من سنة ١٩٣٦ — ١٩٥٥ ، القسم الأول والثانى والثالث ، ١٩٦١و١٩٦٢و١٩٦٣ ، تصنيف فؤاد السيد ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب .

— دار الكتب الظاهرية : فهرس المخطوطات ، التاريخ وملحقاته ، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، وضعه يوسف العش ، مطبعة دمشق ، ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٧ م .

— المجمع العلمى العراقى : مخطوطات عربية فى مكتبة صوفيا الوطنية البلغارية ، =

وكيف صورت منها ماأردت من النصوص ، خاصة بعد أن عثرت بها على السنوات التى تتضمن هذه النصوص ، وبعد أن أكد سيادته أن هذه النسخة هى نسخة المؤلف الأصلية التى كتبها بخط يده . وقد سبق أيضا أن ذكرت أن هذه النسخة ذات طبيعة خاصة ، نظراً لما لاحظته أثناء النظرة العاجلة التى ألقيتها عليهاعند تحديدالنصوص وتصويرها،مثل اضطراب ترتيب السنوات ، ومثل ما شابها من الشطب الكثير والإضافات الهامشية الكثيرة . ويلاحظ أن صاحبها قد أثبت ملكيته لها فى أولى صفحاتها ، فهناك نص يقول « الحمد لله ، هذا التاريخ الجليل للعلامة لطف الله بن أحمد جحاف رحمه الله تعالى فى دول (أى ملك وحيازة) سيدى المولى العلامة فخر الآل عبد الله ابن على عبد القادر حفظه الله وعافاه آمين ، كتبه (أى هذا النص،ولده) عبد القادر بن عبد الله غفر الله لهما » ، غير أن هذا النص لا يثبت صراحة ـ باستثناء الملكية الخاصة ـ أن هذا الكتاب إنما هو كتاب « درر نحور الحور العين » كما اعتقدت فى البداية ، كما لا يتضح منها أيضاً أنه كتابه التاريخى الآخر الذى بعنوان « التاريخ الجامع » رغم أنه يحتوى على سنوات وحوادث تدل على ذلك ، ولكن كل ما تؤكده هذه العبارة هو أن هذا الكتاب إنما هو كتاب للتاريخ ، وأن مؤلفه هو لطف الله جحاف . ولكنى فى واقع الأمر تعاملت مع هذه النسخة باعتبار أنها نسخة كتاب « درر نحور الحور العين »

= تصنيف الدكتور يوسف عز الدين ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، بغداد ١٣٨٨هـ ١٩٦٨ م .

— فهرست كتب الخزانة المتوكلية العامرة بالجامع المقدس بصنعاء ، طبع بمطبعة وزارة المعارف المتوكلية بصنعاء ، وضعه المرحوم القاضى محمد أحمد الحجرى .

— معهد المخطوطات العربية : جامعة الدول العربية ، فهرست المخطوطات المصورة ، قسم التاريخ ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م .

— تقرير البعثة المصرية لتصوير المخطوطات العربية فى بلاد اليمن المقدم من رئيسها الدكتور خليل يحيى نامى فى ديسمبر ١٩٥١ (ويحتوى أسماء المخطوطات التى صورتها البعثة) ، وزارة المعارف العمومية المصرية ، مطبعة الوزارة ، ١٩٥٢م .

التي تضم بين طياتها النصوص المطلوبة وذلك حتى عودتي إلى اليمن ، ورجوعي إليها مرة أخرى ، لتأكيد الملاحظات التي لمستها منذ البداية ، والتي جعلتني أميل إلى أنها نسخة المؤلف الأصلية ، أو بالأحرى مسوداته[1] ، أو بالتعبير الحديث عبارة عن «الكروت» التي جمع بها مادته العلمية الكتابية «درر نحور الحور العين » و « التاريخ الجامع » معاً .

فقد لاحظت مبكراً ، أنه من ناحية ، أن سنوات هذه النسخة غير مرتبة ترتيباً زمنياً سليما ، وأن بعضها يسبق الآخر ، وبدا أنها كانت مجموعة أوراق أو كراسات سطرها المؤلف ثم جمعت خطأ إلى بعضها البعض عند التجليد . ومن ناحية ثانية ، فان هذه النسخة مرقمة ترقيما حديثاً مسلسلا ، فهي مرقمة بالصفحة وليست بالورقة أو بالكراسة ــ أو حتى بدون ترقيم ــ كما هي عادة الأقدمين ، كذلك عبر شكل الأرقام ورسمها على حداثة الترقيم . ومن ناحية ثالثة ، هناك إضافات كثيرة على جانبي متن الكتاب، وهي ليست عبارة عن كلمات أو عبارات قصيرة لتغطية جوانب السهو التي يقع فيها أي مؤلف ، بل هي إضافات طويلة لأخبار وموضوعات كاملة رغب المؤلف في إدخالها في متن كتابه . والجدير بالذكر أن كثيرا من النصوص الخاصة بالحملة الفرنسية على مصر وجدتها على جانب المتن وضعها المؤلف عند ترتيبها الزمني ثم وضع أسهماً وعلامات تشير إلى مكانها في المتن ، وقد شاهدتها فيما بعد ـ في النسخة الثانية ـ قد أدخلت في المتن وأصبحت جزءا من سلسلة أحداث الكتاب . ومن ناحية رابعة ، فهذه النسخة بدون مقدمة ـ وهي متوفرة في النسخ الأخرى ـ بل بدأها المؤلف مباشرة ـ بعد البسملة ـ بدخول عام ١٢٣١هـ،

---

(١) يطلق اليمنيون — في تعبيراتهم الدارجة — لفظ « المسخرة » على مسودة الشيء ، أما الكتاب الذي يتضمن أكثر من موضـوع ، أو الذي يجمعون به مختارات وموضوعات شتى فيطلقون عليه لفظ « السفينة » أو كناش » .

ثم أخذ يسرد الأحداث على عادته . ومن ناحية خامسة ، تقع سنوات هذه النسخة فى الصفحات كالآتى :

— من صفحة ٢ — ٣٢ توجد سنوات : ١٢٣١ ، ١٢٣٢ هـ ١٢٣٣ هـ .

— من صفحة ٣٢ — ١١٩ توجد سنوات : ١٢٠٦ إلى ١٢١١ هـ .

— من صفحة ١١٩ — ١٨٥ توجد سنوات : ١١٩٥ ١٢٠٢ هـ .

— من صفحة ١٨٥ — ٢٩٢ توجد سنوات : ١٢١٢ » ١٢١٩ هـ .

— من صفحة ٢٩٢ — ٣٣٤ توجد سنوات : ١١٠١ » ١١٢٨ هـ .

— من صفحة ٣٣٤ — ٣٩٩ توجد سنوات : ١١٢٨ » ١١٦٤ هـ .

— من صفحة ٤٠٠ — ٤٠٥ توجد سنوات : ١٠٩٤ » ١٠٩٨ هـ ، وهى غير مرتبة .

ومما يلفت النظر هنا غير عدم ترتيب سنوات الكتاب ، هو تداخلهامع بعضها البعض فى الصفحة الواحدة ، فبينما — على سبيل المثال — تنتهى أحداث ١٢٣٣ هـ فى صفحة (٣٢) نجد أن أحداث ١٢٠٦ هـ — أى بداية مجموعة أخرى من السنوات — تبدأ فى نفس الصفحة ، وهذا يعنى أن هذه النسخة كانت عبارة عن عدة كراسات متفرقة ثم جمعت إلى بعضها البعض .

وبناء على هذه الملاحظات جميعها ، يتضح أن هذه النسخة هي نسخة المؤلف الأصلية ، وأنها مسوداته عندما بدأ في التفكير في كتابة تاريخ بلاده ، سواء تاريخ الفترة التي عاشها وعاصر أحداثها ، أو تاريخ الفترات السابقة له الذي أكمل به ما انتهى إليه المؤرخون السابقون ، كما يتأكد أن هذه المسودات إنما هي أصول كتابية « درر نحور الحور العين » و « التاريخ الجامع » .

وما ذهبت إليه بالنسبة لقيمة هذه النسخة يؤكد ما سبق أن ذكره لي السيد عبد القادر بن عبد الله صاحبها ، وهي أنها النسخة الأصلية للمؤلف التي كتبها بخط يده . كذلك دعم ما انتهيت إليه بشأن هذه النسخة ، كل من القاضي علي أبو الرجال والقاضي إسماعيل الأكوع ، فقد شغل القاضي علي أبو الرجال نفسه بالاطلاع على هذه النسخة قبل أن يقوم بتصويرما أردت ، ودار حولها حوار بيني وبينه عندما التقينا . وقد نقلت هذا الحوار إلى القاضي إسماعيل الأكوع عندما أعدت إليه هذه النسخة ، فأيد رأينا لأنه كما قال قد تم له الاطلاع عليها قبل تسليمها لي . وقد انضم إلينا — بعد عودتي إلى اليمن — رابع هو الأخ عبد الله الحبشي ، فقد تعرف على خط المؤلف ، وانتهى رأيه إلى ما انتهينا إليه .

أما النسخة الثانية فهي نسخة جميلة الخط جيدة النسخ كما سبق أن أشرت ، ولا ترجع أهميتها إلى وضوحها فحسب ، بل إلى أنها كتبت في حياة المؤلف ، وعليها بعض التصحيحات والإضافات بخط يده ، التي وضعت إما في هوامش الكتاب الجانبية أو بين السطور . ولا يتضح في أول النسخة أو في آخرها من هو كاتبها أو ناسخها فلم يشر إلى نفسه واسمه عند نهاية النسخ كما هي عادة النساخ الأقدمين ، وكل ماهنالك ، عبارة مقتضبة على هامش الصفحة الأخيرة نصها « الحمد لله ، طالعه محمد بن علي الشوكاني غفر الله لهما (أي المؤلف) آمين »[1]

---

(١) النسخة الثانية : ورقة ١٣٨٩أ .

وإن كان قد اتضح تاريخ نسخها كما سنذكر فيما بعد . غير أن ناسخها اعتنى بنسخها عناية فائقة نخطها واضح إلى حد كبير، واهتم بوضع النقط والهمزات أكثر نسبياً مما فى النسخة الأصلية ، كما زينها باستعمال الحبر الأحمر ، فكتب به بعض العناوين (أى السنوات) أو النقط والفواصل ، كما أحاط به بعض العبارات الهامشية التى يمكن أن نسميها عناوين جانبية . وعادة استعمال الحبر الأحمر إلى جانب الحبر الأسود عادة منتشرة بين الأقدمين ، وخاصة فى النسخ الشخصية أو التى كانت تعد لتقديمها إلى الملوك والأمراء والشخصيات الهامة. كذلك حرص الناسخ على أن يكرر عبر الكتاب عبارة «قال المؤلف» ، وهى عادة مألوفة لدى القدماء عند النسخ، كما كان يلجأ إليها المؤلفون أحياناً عند الانتقال من موضوع إلى آخر .

وتتميز هذه النسخة أيضاً بأنها نسخة كاملة للكتاب ، فهى تتألف من مقدمة وخاتمة وخمسة وثلاثين فصلا ، أو بالأحرى سنة ، وهى سنوات حكم الإمام المنصور على . وقد أوضح فى المقدمة - إلى جانب منهجه وغيره كما سبق أن أشرت - السبب فى تأليف الكتاب ، فبين أنه يكمل ما بدأه على بن قاسم الحنش عندما أحجم عن مواصلة الكتابة ، فقال : « لما انتهى به التأليف إلى آخر عام الدولة المهدوية العباسية ، أحجم عن الانتقال منها إلى دولة الإمام المنصور ، وصار فى حيرة من ذلك الأمر ، رأى أنه عظم فيها الخطب واتسع الخرق ، وزاد الكرب ، فكان قد عزم على وضع ديباجة يعتذر فيها عما جرى ، ويظهر أن ذلك الخبط الواقع من الوزراء ، ثم أضرب عن ذلك صفحاً ، وطوى كشحاً ، فانتدبت لوصف حوادث هذه الدولة ، وذكرت ما جرياتها (كذا) المهولة ، وأعهدت (تعهدت) أن أتحرى الصدق وأقوله ، وخشيت من القيل والقال ، ونصحنى فى الترك كثير من الأمثال ، فقصدت سيف الإسلام أحمد بن الامام ، لا زال ظل عدله ممتداً على الأنام ، فأطلعته على كراس جملته فى عام تسع ومائتين وعام عشر ومائتين ، وهما متباينتان فى الخوف

والأمان ، وقد كان فيهما من الأمر وكان ، فلما رآه استصوبه ، وعزم على أن أكمله ليستكتبه»[1] .

أما فى نهاية النسخة ، فقد نص على ما يفيد بانتهائه من كتابه ، ذلك عند آخر ترجمة أحد الأعلام المتوفين فى عام ١٢٢٤ هـ فقال : « وبتمام ترجمة محمد بن صالح نجز الكتاب على التمام ، وهو آخر من مات من الأعلام ، بدولة الإمام بن الإمام ، ونسأل الله حسن الختام»[2] . ويواصل الحديث تأكيدا لإنتهاء الكتاب فيقول : « وقد تهيأ المؤلف غفر الله له لذكر حوادث السنين والأيام ، بدولة الإمام بن الإمام أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين أحمد بن المنصور على بن المهدى لدين الله العباس»[3] . أى أنه سينتقل إلى تأليف كتاب آخر خاص بالإمام المتوكل وهو ابن الإمام المنصور الذى خصص له كتابه هذا .

وهكذا يتضح أن هذه النسخة كاملة ، وأن المؤلف قد راجعها ، وأن شيخه محمد بن على الشوكانى قد طالعها . ومن ناحية أخرى فإننا نميل إلى أن ناسخها المجهول الذى لم يشر إلى اسمه فى نهاية الكتاب إنما هو أحد الكتاب بديوان الإمام المتوكل ، وذلك بناء على ما يتضح من العناية بالنسخ ، ومن العبارة الأخيرة التى وردت فى مقدمته سالفة الذكر ، وهى : « وعزم على أن أكمله ليستكتبه ، ومما جاء فى نهاية الخاتمة عند ذكر تاريخ النسخ ، وقد ظهر فى نهاية الكتاب مكان وتاريخ النسخ معا ، إذ جاء فيها : « وكان تمام رصفه والفراغ من رقم حرفه ، بالجبل العالى البنيان ، الراقى على مراقى البلدان ، والمصافح بجنباته بازغة كيوان ، كوكبان ، وصحبة قر الخلافة ، والحرم

---

(١) النسخة الثانية : المقدمة ، ق ٣أ .
(٢) النسخة الثانية : ق ٣٨٩أ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .

الأمن من المخافة ، أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، المتوكل على الله رب العالمين ، أحمد بن أمير المؤمنين المنصور بالله ، أيده الله ، تاسع وعشرين شهر ربيع الآخر عام ثمان وعشرين ومائتين وألف، والحمد لله أولا وآخرا، باطنا وظاهرا ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا[1] » .

وإلى جانب هذه المميزات جميعها الخاصة بهذه النسخة، فهى أيضاً بحوزة أحد علماء اليمن الأفاضل ، ممن يهتمون باقتناء النفائس من المخطوطات ، وهو السيد محمد بن محمد بن اسماعيل مطهر المنصور[2] .

---

(١) النسخة الثانية : ق ٣٨٩أ .

(٢) هو السيد محمد بن محمد بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن مطهر المنصور ، وينتهى نسبه إلى الامام القاسم بن محمد (القرن ١١ هـ ، ١٧ م) . ولد فى « شهارة » فى جمادى الأولى سنة ١٣٣٣ هـ ، وتلقى دروسه فى « ذمار » ، ثم فى « هجرة الدارى » بنواحى « خبان » ثم أكمل دراسته بالمدرسة العلمية بصنعاء . وقد تدرج فى الوظائف القضائية والمدنية العديدة حتى وصل إلى منصب الوزارة بعد قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢ م ، إذ بدأ حياته العلمية فى وظيفة حاكم فى « المقام الإمامى » « بتعز » (أى فى الديوان الملكى بتعز) ثم كاتباً (أى سكرتيراً) لوزير الخارجية ، ثم مساعداً لنائب الامام فى صنعاء . وعند قيام اتحاد الدول العربية بين مصر واليمن فى عهد الامام أحمد ، عين به وزيراً ، ثم نائباً لرئيس الاتحاد ثم رئيساً له . وعند قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢ عين عضواً بمجلس السيادة الذى تشكل عقب قيام الثورة ، وبعد إلغاء هذا المجلس عين وزيراً للعدل . وفى نفس الوقت، فهو يشغل الآن منصب ناظر « الوصايا اليمنية » (وهى غير الأوقاف) منذ أن تولى رئاستها عندما كان مساعداً لنائب الامام فى صنعاء ، وبعد قيام الثورة وتكوين الجمعية العلمية أختير عضواً بها رغم وجوده حينذاك بالقاهرة ، ثم أصبح بعد ذلك رئيساً للمجلس الأعلى لهذه الجمعية . وللسيد محمد بن محمد ولع كبير باقتناء الكتب الهامة والمخطوطات النادرة ، ولذلك ربطته صداقة قديمة وعميقة بالدكتور خليل يحيى نامى والمرحوم الأستاذ فؤاد السيد ، وهما ممن لهم اهتمام كبير منذ سنوات طويلة بالتراث اليمنى من بين المصريين . وقد أدى به هذا الولع بالتراث اليمنى والإسلامى بوجه عام إلى أنه أعد عدة مؤلفات لم تنل حظها بعد من النشر ، لكثرة مشاغله العملية ، ولطبيعته العلمية التى جعلته أكثر تدقيقاً =

من العرض السابق يتضح أن هاتين النسختين إنما تفضلان باقى النسخ المعروفة ، فالأولى هى نسخة المؤلف الأصلية ومسوداته ، والثانية نسخت فى حياته ، وعليها إضافات وتصحيحات بخط يده . لهذا فقد اعتبرت نسخة المسودات هى النسخة الأصلية أى النسخة « الأم » ، فاعتمدتها عند التحقيق . ونسخت نصوصها لدى فى المتن ، وسأشير إليها فى الهوامش بالرمز ن . ع. أى نسخة السيد عبد القادر بن عبد الله . أما النسخة الثانية ، فسأستعين بها فى توضيح أو تصحيح بعض ما جاء فى النسخة الأم ، سواء فى الهوامش أو المتن حسب ما تقتضيه قواعد تحقيق النصوص، وسأشير إليها فى الهوامش بالرمز : ن . م . أى نسخة السيد محمد بن محمد اسماعيل .

وتتضاءل بعد ذلك أهمية النسخ المعروفة لدينا ، مثل النسخ الثلاث التى أشار إليهن الأخ عبد الله الحبشى فى كتابه سالف الذكر ، واللاتى تحدث عنهن فى مقالته فى مجلة «العرب»[١] . كذلك النسخة التى قامت البعثه المصرية للمخطوطات بتصويرها على ميكروفيلم من مجموعة الكتب المصادرة بمدينة تعز ، إذ أنها نسخت فى عام ١٣٤٦ هـ أى بعد قرن من الزمان تقريبا من وفاة

= وتمحيصاً لما يكتبه . ومن هذه المؤلفات «المقتطف من أمانى أبى طالب» كما له قصيدة طويلة تبلغ ألف بيت تضمنت السيرة النبوية ، وكتب رسالة فى بعض مسائل علم الكلام ، كما له مؤلف عن « عيون المختارات » وهو عبارة عن عدد من مختاراته من التراث الإسلامى مع التعليق عليها . وأخيراً ، فقد قام بتمثيل بلاده فى بعض المؤتمرات التى عقدت بجامعة الدول العربية .

(١) مجلة العرب : الرياض ، المجلد ١ ، السنة السابعة ، رجب ١٣٩٢ هـ ، أغسطس ١٩٧٢ ، ص ٣٠ .

المؤلف[1] . والجدير بالذكر الإشارة أيضاً إلى النسخة التى عثرت عليها مؤخرا أثناء انشغالى بهذه الدراسة ، وهى النسخة التى وجدت بمكتبة مؤرخ اليمن الكبير المرحوم السيد محمد بن محمد زبارة . فهى تنضم إلى هذه المجموعة من النسخ التى تقل أهميتها عن أهمية النسختين سالفتى الذكر ، اللتين اعتمدتهما فى تحقيق النصوص . ويبدو أنها نقلت حرفيا عن النسخة الثانية (ن . م .) ، حتى أن ناسخها حرص على نقل التعليقات والإضافات التى جاءت فى أول هذه النسخة الثانية وفى آخرها . ولم يرد خلال هذه النسخة أية إشارة إلى تاريخ نسخها ، وإن كان يبدو أنها نسخت فى وقت متأخر كما يتضح من خطها ومن شكل أرقامها . غير أنه قد اتضح فى نهايتها أنها كتبت « بعناية سيدى العلامة جمال الدين على بن محمد بن أحمد بن ابراهيم حفظه الله تعالى وعافاه آمين » ، وأن ناسخها هو « المفتقر إلى رحمة الله وعفوه على بن عبد الله بن عبد الرحمن الجندارى عفى الله عنه آمين[2] » ، كما اتضح أيضا فى بدايتها أنها انتقلت إلى ملكية المرحوم السيد محمد بن محمد زبارة « بطريق الشرى (الشراء) من الأخ العلامة على بن محمد بن أحمد بن ابراهيم فى ٧ ذى القعدة سنة ١٣٥٠ هـ »[3] .

صعوبات التحقيق والتغلب عليها :

وفى ختام الحديث عن النسختين اللتين اعتمدت عليهما عند تحقيق النصوص وعن باقى النسخ التى تعرفت عليها ، ينبغى إلقاء بعض الضوء على الصعوبات التى واجهتها مع النسخة « الأم » حتى تم لى نسخ نصوصها التى حملت صورها معى إلى القاهرة خاصة أنها كانت النسخة الوحيدة التى تعرفت

---

(١) وزارة الثقافة : القاهرة ، دار الكتب والوثائق القومية ، مراقبة المخطوطات قائمة المخطوطات العربية المصورة بالميكروفيلم من الجمهورية العربية اليمنية ، ١٩٦٧ ، ص ١٨ .

(٢) ، (٣) نسخة زبارة : ص ٧١٧ .

عليها حتى ذلك الوقت ، والتى كان على أن أكشف غوامضها وأحل رموزها مهما كلفنى ذلك من مشاق ، وقد سبق أن تحدثت عن الطبيعة الخاصة لهذه النسخة ، وأنها اتسمت بعدم ترتيب سنواتها ، وبكثرة الشطب فيها ، كذلك بكثرة الإضافات الهامشية إلى غير ذلك من الملاحظات الخاصة بها . ولكن هذه الملاحظات لم تكن هى كل الصعوبات المتعلقة بالنسخة ، فهناك صعوبات أخرى تتصل بقراءتها ، أو بالأحرى من ناحية الخط وطريقة الكتابة والأسلوب وغير ذلك مما يمكن أن يدرج تحت الناحية الشكلية للمخطوطة . وفى واقع الأمر ترجع هذه الصعوبات فى أغلبها إلى طبيعة الكتابة فى عصر مؤرخنا ، وإلى ضعف اللغة حينذاك بوجه عام ، وإلى ميل المؤرخ إلى استعمال السجع باعتباره من المحسنات اللفظية ، فتصرف فى الإملاء ، واستعمل بعض الألفاظ العامية ليستقيم له السجع .

وأول ما يلفت النظر عند قراءة هذه النسخة هو عدم تنقيط الكلمات باستثناء القليل منها ، أى أن المؤلف لم يهتم بوضع النقط على الحروف بشكل زائد عما هو مألوف فى عصره ، وذلك كما يتضح من المقارنة بين نسخته وبين النسخة الثانية (ن . م.) التى كتبت فى حياته ، ومن الشائع فى المخطوطات اليمنية حسب معلوماتى عنها وكثرة تناولى لها ، أن المؤلفين والنساخ يقلبون الضاد إلى ظاء عند الكتابة ، أو حتى عند التحدث كما لاحظت — والعكس بالعكس ، أو يضعون نقطة تحت الدال والطاء لتأكيدهما لأنهم لا يضعون نقطاً فوق الذال والظاء . إلا أن مؤرخنا لم يقف عند هذا الحد بل أهمل كثيراً فى وضع النقاط فزاد هذا من صعوبة القراءة ، ولم أتمكن من تذليل هذه الصعوبة إلا عن طريق التعود ، ومحاولة فهم المعنى من خلال السياق العام للكتابة ، ومثال ذلك أنه كتب : نخرج من دون تنقيط وهو يعنى : نخرج من . كذلك انتفت الهمزات تقريباً من كتابته ، حتى ولو كانت الهمزة جزءاً من أصل الكلمة ، فنجد أنه يكتب : فهولا بمعنى . فهؤلاء ويكتب شيا بمعنى شيئا ،

ويكتب وزاريه بمعنى : وزرائه ، وهكذا ، هذا فضلا عن الهمزات التى ترد فى نهاية الأسماء مثل ماء وسماء وصنعاء وغيرها فإنه يهملها تماماً . وواقع الأمر أن الهمزة والحرص على وضعها فى أماكنها الصحيحة من الكلمات ، إنما هو من مظاهر الكتابة العربية فى العصور الحديثة ، وليس شأناً تقليدياً قديماً . ويلاحظ أيضاً الخلط بين التاء المفتوحة والتاء المربوطة، فكان المؤلف يقلب الثانية إلى الأولى فكتب نعمت بدلا من نعمة ، وكتب بمسرت بدلا من بمسرة وهكذا. كذلك كانت الياء فى آخر الكلمات تقلب إلى ألف، فكتب جرا وصحتها جرى ، وكتب العظما وصحتها العظمى . وإلى جانب هذا كله ، كان يستعمل بعض التعبيرات العامية الشائعة فى عصره، كما كان يكتب بعض الكلمات كما ينطقها مثل : الذينهم = الذين هم ، المصطور = المسطور، الكفرين = الكافرين ، ضرايرهم = ضررهم . أما الأسماء فإن المؤلف رغم حرصه على ضبط الأعلام مثلما فعل مع اسم : بونه بارته (أى بونا بارت) فانه شكلها ثم عاد فأوضح هذا التشكيل كتابة بالكلمات لزيادة التدقيق ، إلا أننا نراه يستعمل أكثر من لفظ للتعبير عن العلم الواحد مثلما عبر عن الفرنسيين بألفاظ ثلاث هى : الفرنساوية ، الفرانسة ، الفرنصيص ، وهى الألفاظ التى كانت شائعة فى عصره . كذلك لم يلتزم المؤلف برسم واحد للعلم ، وذلك كما حدث مع اسم سلطان التتار فى القرم ، فكتبه مرة شاهينكيراى ، ومرة أخرى شاهينكراى . ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى غرابة الإسم بالنسبة للمؤلف ، وإلى بعده عنه ، فكان يكتب الإسم كما يصل إلى مسامعه .

ومن ناحية أخرى لم يحرص المؤلف على وضع الفصلات أو النقاط عند نهاية الجمل بل كان يستمر فى الكتابة كما يحلو له ، ولم يقسم كتاباته إلى فقرات ، أو يفرق بين نص حديثه و بين ما يثبته فى كتابه من نصوص . وعذر المؤلف فى ذلك هو أن هذه الأمور جميعها مثل : الفواصل والنقاط والفقرات وغيرها إنما هى من أساليب الكتابة الحديثة التى لم تكن متداولة فى عصر

المؤلف ، أما عذره الثانى فهو أن هذه النسخة إنمـــا هى مسودات المؤلف الأصلية ، التى حرص فيها على الناحية الموضوعية أكثر من حرصه على الناحية الشكلية ، أى التى حرص فيها على جمع المادة التاريخية أكثر من حرصه على تنظيم هذه المادة والعناية بطريقة إخراجها ، فالمسودات عادة تعتبر مرحلة مبكرة بالنسبة لباقى مراحل التأليف العلمى .

وإزاء هذا كله ، ولتسهيل قراءة نصوص الحملة الفرنسية على مصر عند نشرها وطبقاً لما هو متبع فى تحقيق المخطوطات ، فقد حرصت على وضع ماينقص كلمات النص من نقاط وهمزات ، كما حافظت على ما كان يضعه المؤلف أحياناً من تشديد على الحروف ، وأضفت إليها الكثير بما يعاون على فهم معنى الكلمات ، وفى نفس الوقت عملت على وضع الفصلات عند السجعات ، والنقاط عند نهاية الجمل حتى يبرز استقلال كل منها على حدة ، فيتضح معناها ، ويتسق سياق الحديث .

ومن ناحية أخرى ، فبالإضافة إلى المحافظة عند النشر على ترتيب النصوص بعد استخراجها كما وردت فى كتاب مؤرخنا لطف الله جحاف ، فقد أبرزت استقلال كل نص عن الآخر ، فوضعت لكل منهما رقماً مسلسلا وعنواناً خاصاً بين قوسين ، حتى نتمكن من الرجوع إلى كل منها عند الحاجة ولقد راودتنى فكرة ترتيب هذه النصوص حسب موضوعاتها أو حسب طبيعتها ، ولكنى فضلت الإبقاء على ترتيب المؤرخ لما فى ذلك من دلالة تاريخية ، مع الاكتفاء بوضع الأرقام والعناوين لكل منها ، على أن أتناول هذا الترتيب بالتغيير والتعديل ، فأقسمها إلى مجموعات أو فئات — بما يساعد على العرض والتحليل — عند التحدث عن محتويات هذه النصوص فيما بعد .

كذلك استعملت الأقواس التالية لزيادة توضيح متون النصوص عند نشرها وذلك كما يلى :

[ ] : لأرقام وعناوين النصوص .

( ) : لأرقام صفحات النسخة الأم .

﴿ ﴾ : للآيات القرآنية والأحاديث الشريفة .

(( )) : للزيادات أو التصحيحات من النسخة الثانية .

« » : للكلمات التي أضيفت لتوضيح المعنى .

وهنا يقتضي الأمر التعرض لمجموعة النصوص نفسها : طبيعتها من ناحية وموضوعها من ناحية أخرى حتى يتضح أمامنا مواضع الجدة والأهمية فيها .

أما من حيث طبيعة هذه النصوص ، فهي تنقسم إلى قسمين: القسم الأول هو كتابات المؤلف نفسه مثل ذكر الأحداث والأخبار ، أو التعليق عليها ، أو وصف مشاهداته . أو حتى انطباعاته عما سمعه أو رآه . وهذا القسم يشمل النصوص رقم : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٩ .

والقسم الثاني هو مجموعة المراسلات — أو التحريرات والمكتوبات حسب التعبيرات الشائعة في صنعاء — التي تبودلت بين الإمام حينذاك وبين زعماء وقادة العالم العربي والإسلامي مثل شريف مكة ، ووالي المدينة المنورة العثماني ، والسلطان العثماني . وهذا القسم يشمل النصوص رقم : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ .

المؤرخ وموضوع الحملة والجبرتي :

أما من ناحية موضوع هذه النصوص — أو بالأحرى محتوياتها — فإنه يمكن القول في عبارة موجزة — ومن خلال نظرة نقدية موضوعية — أن بعض هذه النصوص يضيف جديداً إلى ما هو معروف عن موضوع

الحملة الفرنسية على مصر وآثارها على المناطق المحيطة بها ، وعلى السياسة الدولية . وأن البعض الآخر — من هذه النصوص — يشوبه الضعف أو الغموض أو التعميمات ، أى كانت أهميته تنحصر فى إظهار ما كان رائجاً وشائعاً عن الحملة فى اليمن ، وليست فى إضافة حقائق تاريخية .

ويجدر تفسير سبب هذا التباين بين مواضع الجدة والقوة فى هذه النصوص وبين مواضع الغموض والتعميات فيها — أو بمعنى آخر بين إيجابيات وسلبيات المحتويات ـ ذلك التباين الذى يرجع فى أساسه إلى ظروف المؤرخ نفسه ، وإلى ما أحاط تدوين النصوص من ملابسات — وذلك قبل تناول محتواها بالعرض والتحليل ، حتى يتضح قدر أهميتها ، وتوضع فى مكانها الصحيح داخل الإطار العام لموضوع الحملة الفرنسية .

فمن ناحية ، كان استيلاء الفرنسيين على مصر حدثاً ضخماً فى تاريخ الشرق العربى والإسلامى ، مس نياط القلوب ، وأوقع ما أوقع من آثار نفسية عميقة لدى المعاصرين حينذاك . وزاد من حدة هذا التأثير قوة الشعور الدينى من ناحية والشعور الإقليمى من ناحية أخرى . وقد انعكس هذا فى اهتمام مؤرخنا بتدوين أخبار : « ديار مصر طهرها الله من الدنس » وفى شحن النصوص بقسميها بالروح الدينية العالية ، وبنفخ روح الحماس ـ والدعوة إلى الجهاد ـ فى نفوس المسلمين ، ضد « هؤلاء الكفرة الملاعين » .

ومن ناحية ثانية ، كان مؤرخنا قريباً من مركز السلطة فى صنعاء ، فساعده ذلك على أن يتابع الأخبار عن كثب ، وأن يلتقط تفاصيل الأحداث وأكثرها سرية . بل وأن يحصل على نصوص المراسلات المتبادلة بين الإمام وباقى زعماء العالم العربى والإسلامى . وقد تجلت فائدة هذا القرب ـ على سبيل المثال لا الحصر — فى أن مؤرخنا استطاع أن يقدم لنا أخبار وصول

مندوب انجلترا إلى صنعاء للحصول على موافقة الإمام لإقامة قاعدة انجليزية على الأراضى اليمنية عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى (النص:١٣) .

ومن ناحية ثالثة . قام لطف الله جحاف بالحج عقب انتهاء أحداث الحملة على مصر بقليل كما اتضح عند ترجمة حياته ، فأتاح له فرصة الاستماع إلى تفاصيل أحداث الحملة — فى مكة والمدينة — وعاد ليدون هذه التفاصيل فى كتابه : « قرة العين بالرحلة إلى الحرمين » ، ثم ليضيف إلى كتابه التاريخى « درر نحور الحور العين » الإشا ' رالتلخيصات التى تخص هذه الحملة .

وهذه النواحى جميعها هى التى جذبت نظر مؤرخنا بشدة إلى أحداث الحملة والتى دفعته إلى الاهتمام بتدوين كل ما وصل إلى مسامعه أو وقعت عليه يداه ، أو بمعنى آخر هى العوامل التى تفسر لنا الجانب الإيجابى فى هذه النصوص . غير أن هناك نواح أخرى أثرت فى قيمة هذا الاهتمام ، وأضعفت جهد المؤرخ فى الوصول إلى « الحقائق التاريخية » ، مما جعل بعض النصوص تتصف بالغموض والتعميات وخاصة تلك النصوص التى تتناول أحداث الشمال — بالنسبة للمؤرخ — أى أحداث مصر والشام ، وهذه النواحى — التى سأشير إليها — هى العوامل التى تفسر لنا الجانب السلبى فى هذه النصوص .

فمن ناحية ، كان مؤرخنا يقيم بعيداً عن ميدان أحداث الحملة — فى مصر والشام على عكس المؤرخ المصرى المعاصر عبد الرحمن الجبرتى الذى عاش هذه الأحداث لحظة بعـــد لحظة وانفعل بها وتفاعل معها ، بل ولا نغالى إذا قلنا أنه شارك فى صنعها — من بعيد أو قريب — إذ كان أحد شيوخ الأزهر حينذاك ، كما انضم مؤخراً إلى « الديوان » الذى أسسه الفرنسيون فى القاهرة للاستفادة من خبرة هؤلاء الشيوخ فى إدارة

البلاد . وقد زاد من بعد المؤرخ اليمنى مكانيا عن مجرى الأحداث صعوبة الاتصال وضعف المواصلات بين البلدان فى عصره ، وذلك على عكس ما حدث فى وقتنا الحاضر ، فقد ألغى التقدم العلمى الهائل المسافات بين بقاع العالم .

ومن ناحية ثانية ، كانت صعوبة المواصلات والاتصالات فى تلك العصور بين بقاع العالم تساعد على تغلب « الصفة المحليـــة » فى كتابات المؤرخين حينذاك . لذلك اهتم مؤرخنا — نظراً لإمكانيات عصره — ومثله مثل باقى مؤرخى عصره — بتتبع الأحداث المحلية أكثر من اهتمامه بالأحداث التاريخية . وهو من هذه الناحية لا يختلف كثيراً أو قليلا عن الجبرتى مؤرخ القاهرة ، والبديرى مؤرخ دمشق ، وابن بشر مؤرخ الرياض ، فكل هؤلاء — بالإضافة إلى مؤرخ صنعاء — تعمق فى سرد أحداث مدينته حتى بلغ الذروة ، فقدم لنـــا تاريخاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً من خلال تتبعه لتفاصيل الأحداث اليومية ، فضلا عن ذلك عكست كتاباتهم الأساطير والخرافات التى سادت وانتشرت بين معاصريهم . أما الأخبار الخارجية فقد سجلها كل منهم كما وصلت إلى مسامعه ، وكما تناقلتها الألسن ، حتى كاد فضلهم على معاصريهم من الناحية العلمية ينحصر — بالنسبة لبعض ما دونوه من سطور — فى مجرد تسجيل الروايات والأشاعات السائدة بين ذويهم . فالجبرتى — رغم شهرته وضخامة مؤلفه وعمق نظراته وتحليلاته — لا يعدو أن يكون مؤرخاً قاهرياً أكثر منه مصرياً كما يظهر بوضوح من قراءة كتابه فى أجزائه الأربعة ، فهو لم يتمكن من متابعة أحداث الحملة فى صعيد مصر — على سبيل المثال — كما تتبعها فى القاهرة ، ولم يتابع الأحداث خارج القاهرة — بوجه عام — إلا من خلال ما تناقله الوافدون إليها ، أو من خلال المنشورات التى كان الفرنسيون يلصقونها على الجدران عند أبواب الحارات ، وفى أماكن تجمع

الأهلين . ويتضح هـذا — عند المقارنة — في متابعته لأخبار مجاهدى الحجاز فى الصعيد ، فهو لم يشر إليهم إلا إشارات عابرة . فتفوق عليه لطف الله جحاف وأتى بالمزيد من التفصيلات . كذلك كان الحال بالنسبة للبديرى ، فقد « كاد أن يقصر اهتمامه على تدوين ما يجرى فى دمشق وحدها . . . على أن المؤلف سجل أيضاً بعض ما كان يصل إلى علمه من أحداث ، تجرى فى دمشق أو قريب منها[1] » . وهكذا فعل أيضاً ابن بشر ، فهو لم يسجل إلا أخبار الأسرة السعودية حتى بدا وكأنه يمسك دفتراً لتسجيل أفعال الأمراء أكثر مما كان يكتب تاريخاً . واتضح هـذا جلياً عندما تناول أحداث الحملة الفرنسية — كما سبق أن ذكرت — إذ لم يشر إليها إلا إشارة عابرة — دون تفصيلات تذكر — لا تتناسب مع ضخامة الحملة وأثرها فى تاريخ الشرق حينذاك . ومما هو جدير بالذكر ، أن ما أوردته هنا لا يقلل من أهمية هؤلاء المؤرخين جميعاً لغلبة الصفة المحلية على كتاباتهم ، فلولا هذه الصفة ما اغتنى تاريخنا العربى والإسلامى فى تلك العصور ، وما اتصف بالعمق والأصالة كما هو معروف عنه .

ومن ناحية ثالثة ، فإن عدم عثورى إلى الآن على كتاب « قرة العين بالرحلة إلى الحرمين » — رغم جهـدى المتواصل فى البحث عنه — الذى دون المؤرخ به أحداث الحملة الفرنسية على حد قوله ، يقلل فى الواقع من قدرتنا على الحكم على جهده العلمى ، إذ أن ما ذكره عن أخبار الحملة فى مصر والشام فى كتابه « درر نحور الحور العين » ليس إلا تلخيصاً لما كتبه فى مؤلفه الأول ، فقد قال : (النص : ١) « وفصلنا ذلك فى كتابنا « قرة

---

(١) أحمد البديرى الحلاق : حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ — ١١٧٥ هـ (١٧٤١ — ١٧٦٢ م) ، نشر وتحقيق الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، المقدمة ص ٢٤ .

العين » فلا نطول بالإعادة ، ففيه مطلوب المتطلع وزيادة ، وأعاد هذا المعنى (النص : ٤) عند حديثه عن متطوعى الحجاز وحروبهم فى صعيد مصر ، فقال : « فكان من خبره ما قصصناه فى كتابنا « الرحلة إلى الحرمين » غير أنا لا نخل بهذا الكتاب من فائدة زائدة » . وبالإضافة إلى ذلك فقد سبق أن ذكرت — عند وصف النسخة الأم — أن هذه الإضافات والتلخيصات قد وضعت على جانبى هذه النسخة — أو أغلبها على الأقل — على عكس المراسلات فقد وضعت داخل المتن فى ترتيبها الزمنى . ولا شك أن هذه الظاهرة تعطى بعض الضوء على أنه شرع فى وضع كتابه «درر نحور الحور العين » قبل سفره إلى الحج ، وإن لم تحل تماماً مشكلة تحديد تاريخ البدء فى تأليف هذا الكتاب التى مازالت تواجهنا إلى الآن .

ومن ناحية رابعة ، فإن بعد المؤرخ عن مجرى الأحداث ، وصعوبة المواصلات والاتصالات فى عصره ، ثم افتقادنا لكتاباته الأصلية عن الحملة — أى كتابه « قرة العين بالرحلة إلى الحرمين » ، هذا جميعه قد أثر فى إدراك مؤرخنا لكنه العلاقات الدولية والسياسية العالمية حينذاك . فقد فاته معرفة أبعاد الصراع الاستعمارى بين الدول الأوربية ، ولم يقف على الدوافع الحقيقية لمجىء الفرنسيين إلى مصر ، ولم يفهم جيداً أوضاع الدولة العثمانية أو أحوال مصر الداخلية ، بل تشعبت حوله الأحداث وتفرقت ، واعتمد على الروايات الشائعة التى تناقلتها الألسن ، فوقع فيما وقع فيه من أخطاء تاريخية بالنسبة لمجريات الأحداث فى مصر والشام .

وفى الواقع ، لم يدرك الجبرتى هذه النواحى الدولية أيضا — رغم أهمية كتاباته بالنسبة لتاريخ الحملة — لكنه لم يقع فى الأخطاء التى وقع فيها لطف الله جحاف ، إذ اكتفى هو بتسجيل الوقائع والأحداث

كما هى ، واهتم بتتبعها والتعليق عليها كلما أتيحت له الفرصة ، ودون انطباعاته عما يجرى أمام عينيه من مشاهدات وأحداث ، وذلك فى واقعية بسيطة ، دون أن يسعى إلى البحث عن المجهول ، أو تفسير الأحداث البعيدة الخفية . ويتأكد هذا إذا رجعنا إلى الجزء الثالث من كتابه الشهير : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » الذى ضمنه أحداث الحملة الفرنسية، والذى بدأه بذكر أحداث عام ١٢١٣ هـ (يونيه ١٧٩٨ م) ، فقد افتتح هذا الجزء بعبارة مركزة تعبر عن وجهة نظره الخاصة — الدينية — فيما وقع فى هذه السنة من أحداث ، فقال : « وهى أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»[1] ، ثم تلى هذه الافتتاحية مباشرة حديثه عن وصول الأخبار من الإسكندرية إلى القاهرة بمجيء الأسطول الإنجليزى إليها «للتفتيش» عن الأسطول الفرنسى ثم مغادرته للثغر ، ثم انتقل إلى الحديث عن وصول الأسطول الفرنسى بعد ذلك إلى الإسكندرية ، ونزول الفرنسيين إلى البر واحتلالهم المدينة .

وهكذا يستمر الجبرتى فى متابعة أخبار الحملة ، فينتقل من خبر إلى آخر فى يسر وسهولة ، مع التعليق وإبراز رأيه دون اقتحام ، ومع الإشارة إلى مصادره سواء كانت روايات الوافدين أو منشورات الفرنسيين أو مشاهداته ومعلوماته الخاصة ، وذلك حتى يصل إلى نهاية أخبار الحملة وجلائها عن مصر . ويبدو أن سبب واقعية الجبرتى هو زحمة الأحداث حوله ، وتواليها بسرعة

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ٣ ، ص٢ .

أمامه ، وانفعاله بها ، وذلك كما يتضح من « افتتاحيته » سالفة الذكر .
أما مؤرخنا اليمنى فقد ترامت إلى مسامعه الأحداث من بعيد متهادية مهزوزة بعد أن غلفتها التصورات والتخيلات التى يبتدعها عامة الناس ، والتى تتزايد مع مثل هذه الأحداث الضخمة . ويصحب هذه التصورات والتخيلات عادة محاولات مخلصة حارة من جانب هؤلاء العامة — ولكنها ضعيفة غير صحيحة فى الغالب — لتحليل الأحداث وتفسيرها والخروج بالنتائج الكثيرة المستفيضة ، وذلك إرضاء لذواتهم وحب الاستطلاع لديهم ، وسعياً وراء الحقيقة التى غمضت عليهم . وربما كان هذا هو سبب زلات لطف الله جحاف التاريخية ، فقد لجأ إلى البحث عن « السببية » لتفسير الأخبار التى وصلت إليه ، ولسد الثغرات التى تخللت هذه الأخبار وأضعفتها ، لجرى بدوره ليجد لكل شىء سبباً — رغم بعد المعلومات الكافية عن تناول يده — فابتعد لذلك عن التحليلات السليمة ، وأورد ما هو ليس مطلوباً منه من المعلومات التاريخية .

واتضح هذا كثيراً عند بداية حديث المؤرخ عن الحملة الفرنسية (النص : ١) فقد أصر على أن يعطى تفسيراً لمجىء الحملة إلى مصر ، وأرجع ذلك إلى خلاف أحد التجار الفرنسيين مع حاكم مصر حينذاك ، دون أن يتحرى الدوافع الحقيقية الأخرى التى حدت بفرنسا إلى الاستيلاء على مصر . وواصل منهجه هذا ، فذكر أن هذا التاجر هو الذى دفع حكومته إلى الانتقام من حكام مصر « وأطلقه فى قيد الذل مهاناً ، فراح عنها ووصل إلى سلطان دياره بونابرته » ، فعمل الأخير على الاتصال بالسلطان العثمانى ليأذن للفرنسيين « بالخروج إلى الاسكندرية ليعبروا منها إلى بحر السويس لحاجات لهم بالهند ، فأبى ذلك ، ولم يسعفهم إلى ماهنالك » .
ويبدو المؤرخ هنا وكأنه لا يتصور أن تتجرأ فرنسا على مهاجمة ممتلكات السلطان — لما كان للدولة العثمانية من هيبة حتى ذلك الحين فى نفوس

المعاصرين من المسلمين — وأن عليه أن يبحث عن مبرر منطق ليقتنع هو ويقنع معاصريه بسبب جرأة فرنسا هذه . وأوقعه هذا الاصرار فى خطأ آخر ، وهو قوله بأن الفرنسيين التفوا حول والدة السلطان ، التى كانت بيدها مقاليد الأمور لضعف شخصية ابنها وانصرافه إلى ملذاته ، وأغروها بالأموال « فجعلوا إليها صكا فى الإذن بالعبور من الاسكندرية ، فوضعت خاتم السلطان على ذلك ، فراحوا عن ديار الروم ، وقد تبلجت لهم المسالك » .

وهكذا وصل المؤرخ — من وجهة نظره الخاصة — إلى ما يرضى عقيدته وتصوراته ، ولو ابتعد به هذا عن « الحقيقة التاريخية » . وقد كان من السهل على المؤرخ بدلا من الجرى وراء المبررات والأسباب ، أن يفسر استيلاء الفرنسيين على مصر بأنه — مجرد — اعتداء من جانب فرنسا على ممتلكات السلطان — أو « ديار الإسلام » — إذ من المعروف تاريخياً أن اتجاه الحملة إلى مصر — عند خروج الأسطول من الموانىء الفرنسية — كان أمراً سريا للغاية ، لا بالنسبة للعالم أجمع فحسب ، بل بالنسبة أيضا لأفراد هذه الحملة باستثناء كبار قادتها المقربين من بونابرت . وبالإضافة إلى هذه الأخطاء التى أدى إليها حرصه على التفسير وإبداء الأسباب — رغم أن هذا الحرص يعد من الصفات العلمية التى تميز بها مؤرخنا اليمنى — فقد انزلق أيضا إلى أخطاء أقل شأنا ، لقلة المعلومات لديه ، ولاعتماده أيضا على الروايات الشائعة بين معاصريه ، كذلك لحرصه على إكمال رواياته بقدر المستطاع . فهو يعتبر بونابرت « سلطان بلاده » ، رغم أن حكومة الجمهورية الفرنسية آنذاك كانت هى « حكومة الادارة » ، ولم يكن بونابرت سوى أحد قادة هذه الجمهورية الكبار . كذلك ذكر أن جزيرة مالطة كانت « تحت حوزة الانكليز » عند استيلاء الفرنسيين عليها ، وأن حاكمها المدعو « قنصل » هو الذى لجأ إلى السلطان العثمانى يشكو إليه ما فعله الفرنسيون به ،

ويحثه على الانتقام منهم ، وهكذا حتى وصل إلى تفسير سبب تعاون انجلترا مع أحمد باشا الجزار أثناء حصار عكا . وحقيقة الأمر أن بونابرت استولى على « مالطة » من أيدى أصحابها جماعة «فرسان القديس يوحنا» ، كما أن حث انجلترا للسلطة العثمانية على إعلان الحـــرب على فرنسا بعد هجومها على مصر ، كان على يد الحكومة الانجليزية ذاتها ، وبواسطة سفيرها فى استانبول وليس على يد هـذه الشخصية الوهمية التى تدعى « قنصل » ، ويبدو أن المقصود من وراء هـــذه التسمية هو الدلالة على نشاط السلك الدبلوماسى الذى لم تكن وظائفه أو تعبيراته قد عرفت وانتشرت بعد بين المعاصرين وقتذاك .

وأخيراً فقد ترتب على « البعد المكانى » بين المؤرخ والأحداث فى مصر والشام ، أنه تخيل أن هناك « بعداً زمنيا » أيضا ، فلم يتحقق من تاريخ مجىء الحملة الفرنسية ، ووضع بداية حديثه عن أحداث الحملة بين وقائع عام ١٢١٢ هـ وليس بين أحداث عام ١٢١٣ هـ ـــ وهو التاريخ الصحيح — فقال : « وفيها (أى سـنة ١٢١٢ هـ) وردت الأخبار بدخول الفرانسة ، جعل الله ديارهم دارسة ، وغيرهم من الأفرنج الأبالسة ، ديار مصر طهرها الله من الدنس فاستولوا عليها » .

وهـــكذا يتضح أمامنا النواحى الأربع التى أضعفت بعض كتابات مؤرخنا لطف الله جحاف ، كما اتضح بعض الأمثلة لأخطائه ، غير أنه يلاحظ بالنسبة لهذا « الضعف » عدة أمور :

أولا : أنه لا يشمل جميـع النصوص التى ذكرها المؤرخ عن الحملة الفرنسية ، بل تخص فقط النصوص التى تتناول أحداث مصر والشام كما سبق أن ذكرت .

ثانيا : إن هذا « الضعف » ـــ المحدود — يمس فقط الناحيه الموضوعية

فى هذه النصوص — أى الحقائق التاريخية — ولا يمس الناحية المنهجية لدى المؤرخ وقد وقع الجبرتى فى مثل هذه الأخطاء عندما تحدث عن الموضوعات التى بعدت عن متناول يده . ومما يؤكد ما ذهبنا إليه عن المنهج هو محاولته المخلصة الجادة فى تحقيق اسم قائد الجيوش العثمانية ، رغم أنه لم يصل إلى معرفة الإسم الصحيح (النص : ١٦) . وقد أعجبنا فى هذه المحاولة استعداد المؤرخ لتعديل — أو تغيير — معلوماته أو أفكاره من أجل الوصول إلى الحقيقة عندما يتبين الطريق الصحيح ، فهو يذكر فى البداية إسم هذا القائد كما سمعه : « وسمعنا بهذا أحمد طباطبا عن بعض الناس من أهل اليمن ، قال إنه رأى فى كتاب ورد أن اسم الخارج أحمد طباطبا . . . » ، ولكنه سمع إسماً آخراً عندما ذهب إلى الحج وقابل العائدين من متطوعه الحجاز من مصر فصححه حسب الرواية الجديدة .

ثالثا : لا يعيب هذا « الضعف » — رغم ما يبرره — مؤرخنا اليمنى ، إذ يكفيه فخراً أنه انتبه إلى أحداث الحملة الفرنسية ، وأنه عبر عن مشاعره ومشاعر معاصريه من اليمنيين وغيرهم تجاه هذه الأحداث ، فأبرز بهذا رد الفعل — العاطفى والعملى — لدى العالم الإسلامى نحو ما وقع فى مصر والشام حينذاك .

الحملة والأطراف المحيطة بها :

وهكذا تبرز أمامنا عوامل القوة والضعف التى أثرت على كتابات المؤرخ — أو بالأحرى على نصوصه الخاصة بالحملة الفرنسية على مصر — وهذا مما يساعد على الاقتراب من محاولتنا ، وهى وضع هذه النصوص فى مكانها الصحيح بالنسبة للإطار العام لموضوع الحملة . ويزيد هذا الاقتراب التعرض لبعض النقاط الرئيسية للحملة بإيجاز ، وخاصة الجوانب التى تعرضت لها هذه النصوص . وقد سبق أن ذكرت فى بداية هذه الدراسة ،

أنها ليست بحثاً خاصاً بالحملة الفرنسية فى حد ذاتها ، بل هى محاولة ضئيلة لإضافة نصوص يمنية إلى ما هو معروف عن هــذه الحملة ، لعلها تضىء أبعاداً جديدة حولها ، ولعلها تبرز رد الفعل لدى جزء من أبناء العروبة والإسلام فى ذلك الوقت . ولهذا كله ، أو للجمع بين الرغبة فى التعرض لأحداث الحملة ، وبين الرغبة فى الإيجاز لخدمة أغراض معينة ، يجدر قصر الحديث هنا حول توضيح أوضاع الدول « الأطراف » التى شاركت فى صنع أحداث الحملة ، وتناول علاقاتها وأهداف كل منها ، منذ مجىء الحملة إلى مصر حتى جلائها عنها .

ومن المعروف أن الأوضاع فى مصر — عند مجىء الحملة — كانت قد بلغت حداً كبيراً من الانهيار نتيجة استئثار المماليك بالسلطة والنفوذ ، وإهمالهم لشئون البــلاد فى جميع المجالات . وكانت النظم السياسية التى وضعها العثمانيون فى بداية القرن السادس عشر هى المسئولة عن استئثار المماليك هذا ، وما ترتب عليه من تردى الأحوال فى مصر . إذ قامت فلسفة العثمانيين فى حكم مصر على تعدد السلطات بها . وكان العثمانيون قد استعانوا بباقى العناصر المملوكية فى حكم مصر بعد كسر شوكتهم فى عام ١٥١٧ ، لخبرة هؤلاء الطويلة بشئون البلاد ، ودرايتهم بأحوالها ، فتمكن هؤلاء المماليك بالتدريج من استعادة سيطرتهم ونفوذهم ، حتى تجرءوا على عزل الوالى العثمانى فى مصر ، وحبسه فى القلعة حتى يعين غيره ، بل وفكروا أكثر من ذلك فى الاستقلال بحكم مصر ، وطرد العثمانيين منها . وزادت الفوضى والاضطرابات حينذاك نتيجة تنافس المماليك فيما بينهم للوصول إلى المناصب العليا مثل « شيخ البلد » أو « إمارة قافلة الحج المصرى » .

وقد بلغ المماليك أوج قوتهم قبل مجىء الفرنسيين إلى مصر بعدة سنوات ، أى فى عام ١٧٦٨ بعد أن وصل على بك الكبير إلى مشيخة البلد ، فأعلن استقلاله ، وطرد الوالى العثمانى من البلاد ، منتهزاً فرصة انشغال الدولة

فى حروبها مع روسيا القيصرية . غير أن الدولة استطاعت أن تؤلب مملوكه محمد بك أبو الذهب ضده فيقضى عليه ، ويعيد مصر إلى حظيرة السيادة العثمانية ، الإسمية على الأقل . وعقب وفاة محمد بك أبو الذهب عاد الصراع على السلطة بين « البيوتات المملوكية » حتى انتهى الأمر إلى اقتسامها بين إبراهيم بك ومراد بك ، اللذين عاصرا مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر . وقد تدهورت الأوضاع فى عهدهما إلى حد كبير ، فمن ناحية نجد أنهما قد امتنعا عن إرسال الجزية إلى استانبول ، مما دفع السلطنة العثمانية إلى إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقيادة حسن باشا القبطان لتأديب المماليك فى عام ١٧٨٦ م . ورغم انتصاراته على المماليك ونجاحه فى دخول القاهرة ، إلا أنه لم يتمكن من القضاء على إبراهيم بك ومراد بك اللذين فرا إلى الصعيد ، بل واضطر إلى العودة مسرعا إلى استانبول لاستدعاء السلطنة له ، نظراً لاشتعال الحرب الثانية بينها وبين روسيا . وقد نجح إبراهيم بك ومراد بك فى استعادة نفوذهما ثانية فى القاهرة . ولم يستطع الباشوات العثمانيون أن يجبروهما على إرسال الجزية بانتظام إلى استانبول ، بل سارت الأوضاع من سيء إلى أسوأ .

وترتب على هذا كله تدهور الأحوال فى مصر ، فقد أهمل الحكام شئون البلاد ، وتدهورت الصناعة والتجارة ، وابتليت الزراعة نتيجة عدم الاعتناء بشئون الرى أو باستقرار الأمن ، إذ لم يعد للمماليك هم سوى ابتزاز الأموال — من الأهالى والأجانب على السواء — وجمع الثروات ، للتمتع بحياة الترف والبذخ ، وللصرف منها على الأتباع والأنصار ، حتى يحرزوا الفوز فى معركة التنافس حول السلطة والمناصب ، فساد الاضطراب ، وعمت الفوضى ، وانتشرت المجاعات ، وضعفت وسائل الدفاع فى الثغور وفى داخل البلاد ، حتى أصبحت لقمة سائغة أمام الفرنسيين عند مجيئهم إلى مصر عام ١٧٩٨ م . وقد عبر الجبرتى بإيجاز عن هذه الأوضاع فى وصفه

لأحداث السنوات التى سبقت مجىء الفرنسيين مباشرة ، فقال عن أحداث ١٢١٠ هـ (٩٥ / ١٧٩٦ م) : «لم يقع بها شىء من الحوادث التى يعتنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم»[١] ، وعن سنتى ١٢١١ هـ ، ١٢١٢ هـ (٩٧ / ١٧٩٨ م) ذكر نفس المعنى تقريباً فقال : «سوى ما تقدمت إليه الإشارة من أسباب نزول النوازل ، وموجبات ترادف البلاء المتراسل»[٢] .

أما أوضاع الدولة العثمانية نفسها ، فلم تكن أحسن حالا من أوضاع ولايتها مصر ، فقد كان الفساد الذى أخذ يدب فى جسدها طوال القرن السابع عشر — رغم بقاء هيبتها أمام أعدائها حينذاك — قد بدأ يتضح للعيان فى القرن الثامن عشر ، وطمع جيرانها فى مهاجمة أطرافها ، وذلك من ناحية القيصرية الروسية شمالا ، والامبراطورية النمسوية غرباً ، والدولة الصفوية شرقاً . وجنوباً استطاعت إحدى ولاياتها — أى اليمن — من تحقيق استقلالها مبكراً فى عام ١٠٤٥ هـ /١٦٣٥ م . غير أنه يلاحظ ، أنه بالرغم من هذا الضعف الذى أصاب السلطنة العثمانية ، ورغم طول الحروب التى خاضتها آنذاك مع جيرانها ، فقد ظلت هذه الامبراطورية زهاء قرنين من الزمان — أى حتى انهيارها عند نشوب الحرب العالمية الأولى — قادرة على تجميع الجيوش ، وخوض الحروب ، وصد الهجمات ، وإخماد الثورات فى الداخل ، إما بإرسال الحملات التأديبية من حين لآخر ، وإما بتأليب القوى المحلية ضد بعضها البعض ، وذلك كما رأينا بالنسبة المماليك فى مصر .

ويتبين لنا أوضاع الدولة العثمانية — التى تجمع بين الضعف وبين القدرة على البقاء على الأقل — إذا عرفنا موقفها من الحملة الفرنسية على

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ٢٧٨ .

(٢) نفس المرجع والجزء : ص ٢٨٣ .

مصر ، إذ ظلت السلطنة مترددة فى اتخاذ موقف إيجابى من فرنسا ، أو فى قطع علاقاتها بها ، لضعفها من ناحية ، ولخوفها من ناحية أخرى من أن تكون هذه الحملة مقدمة لمخطط أوروبى عام لالتهام الممتلكات العثمانية ، ولكنها تجرأت على أن تتخذ موقفا حاسما ضد فرنسا ، فتقطع علاقاتها بها ، وتعلن عليها الحرب ، وتتحالف مع أعدائها بعد أن علمت بهزيمة الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير البحرية ، وبعد أن دفعتها كل من روسيا وانجلترا إلى التحالف معهما ضد فرنسا ، وهنا بدأت فى إرسال الجيوش إلى مصر لطرد الفرنسيين منها ، وإن نقصت هذه الجيوش روح الانضباط العسكرى والتدريب اللائق ، كما جاء فى تقارير الخبراء الانجليز الذين اشتركوا فى إعداد هذه الجيوش .

وقد بدأ اتصال روسيا وانجلترا بالعثمانيين فى استانبول فى يولية ١٧٩٨ لإعلان الحرب على فرنسا ، ولكن تردد السلطنة أخر اتخاذ هذه الخطوة إلى سبتمبر من نفس العام ، ثم عقدت معاهدة دفاعية هجومية بينها وبين روسيا فى ٢٥ ديسمبر ، ثم انضمت انجلترا إلى هذا التحالف فى الخامس من يناير التالى ، فأدى هذا بدوره إلى تأليف المحالفة الدولية الثانية ضد فرنسا عام ١٧٩٩م . ويفسر لنا هذا النشاط الدبلوماسى الذى وقع فى استانبول ما جاء فى خطابات السلطنة إلى شريف مكة وإمام اليمن ، بضرورة التعاون مع قوات روسيا وانجلترا لأنهما حليفتان للسلطان .

أما بالنسبة لفرنسا ، فقد دفعتها عوامل كثيرة لإرسال حملة حربية إلى مصر ، أما العامل الأول الذى أشار إليه مؤرخنا اليمنى — وهو إساءة معاملة أحد التجار الفرنسيين فى مصر من جانب المماليك — فهو العامل الأخير المباشر التى بررت به فرنسا إرسال حملتها هذه ، أى بحجة تأديب المماليك والانتقام منهم . فمن المعروف أن فرنسا كانت تراودها رغبة قديمة منذ العهد الملكى فى إنشاء إمبراطورية استعمارية تعوضها ما فقدته من

ممتلكات فى العالمين القديم والجديد خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، وذلك نتيجة سوء نظمها الاستعمارية ، ومنافسة انجلترا لها فى مجال الاستعمار . وتأخر تحقيق هذه الرغبة عند قيام « الثورة الفرنسية » ، وتلاحق الأحداث الداخلية ، وتألب الدول الأوربية ضدها وخاصة بعد إعدام الملك لويس السادس عشر ، وعقد المحالفة الدولية الأولى للقضاء على « الجمهورية » فى فرنسا وزيادة الاضطرابات فى ظل « عهد الارهاب » الذى بلغ ذروته فى أيام « روبسبير » ؛ وقدرة « حكومة الإداره » على تحقيق شىء من الهدوء والاستقرار داخل فرنسا ؛ أثار مرة واحدة رغبة الفرنسيين فى الاستعمار ليس لإعادة مجد فرنسا القديم فحسب بل أيضا للانتقام من انجلترا ، لمنافستها القديمة من جهة ، ولحرصها على مناصبة فرنسا العداء من جهة أخرى حتى بعد انفراط عقد التحالف الدولى الأول » وفشل مفاوضات الصلح بين الدولتين . وفكرت فرنسا جديا حينذاك فى إرسال حملة عسكرية — « الحملة الكبرى » — إلى انجلترا لغزوها فى عقر دارها ، وعندما شعرت بعجزها — وضعف استعداداتها — عن تحقيق ذلك ، وجهت أنظارها إلى الشرق لضرب انجلترا فى الهند ، وذلك عن طريق احتلال مصر ، وليس عن طريق رأس الرجاء الصالح الذى أسرعت انجلترا — قبل ذلك باحتلاله ، ومعاكسة السفن التجارية الفرنسية هناك .

غير أن مصر كانت تحتل مركزاً خاصا بالنسبة للسياسة الاستعمارية الفرنسية ، ولم تكن مجرد طريق إلى الهند ؛ ففى العقد الأخير من القرن الثامن عشر — أى قبيل مجىء الحملة إلى مصر بعدة سنوات — تعالت صيحات الفرنسيين المهتمين « بالمسألة الاستعمارية » ، تدعو إلى ضرورة أن تشترك فرنسا فى وراثة الامبراطورية العثمانية التى توشك على الانهيار : وترى أن مصر تفضل غيرها من الممتلكات العثمانية ؛ لخصوبة أرضها ؛

وجودة مناخها ، وموقعها الممتاز ؛ وقربها من فرنســـا ، بل وقارنت هذه الأصوات بين مزايا احتلال مصر وبين احتلال غيرها من الممتلكات العثمانية مثل جزيرتى كريت وقبرص اللتين سيثير احتلالهما ثائرة الدول الأوربية ضد فرنسا . كذلك أوضح الرحالة والقناصل فى تقاريرهم مدى ضعف الثغور المصرية ، وعدم وجود التحصينات الضرورية أو الأساطيل القوية لحماية السواحل ، فضلا عن تصوير مدى فساد الحكام وضعفهم ، وذلك لإغراء المسئولين بفرنسا بأهمية وسهولة الاستيلاء على مصر .

وقد اشتدت رغبة فرنسا فى احتلال مصر ، بعد أن فشلت فى تحقيق مصالحها التجارية بها ، وبعد أن لمست مدى ضعف السلطنة العثمانية عن حماية سيطرتها وتحقيق نفوذها فى ولايتها ، وذلك نتيجة استئثار المماليك بالسلطة ودأبهم على ابتزاز الأموال من التجار الأجانب ، مع تعـــرض التجارة الأوربية عموماً فى مصر للخسارة بسبب انتشار الفوضى والاضطرابات . وكانت انجلترا أسبق الدول الأوربية فى التفكير فى إعادة الطريق التجارى عبر مصر بعد أن ثبتت أقدامها فى الهند ، وتحققت أمامها الفرصة السانحة عندما قام على بك الكبير بحركته الاستقلالية ، ورغب فى إعادة هذا الطريق البرى حتى يعيد لمصر انتعاشها التجارى القديم ، ونجحت انجلترا فى عقد معاهدة تجارية مع خليفته محمد بك أبو الذهب فى عام ١٧٧٥م (١١٨٩هـ) ، فأسرعت فرنسا حينذاك فى عقد معاهدة تجارية مشابهة ، لتأمين تجارتها فى مصر وحتى لا تنفرد انجلترا وحدها بالنفوذ التجارى فى البلاد ونجحت فى عام ١٧٨٥م . فى تحقيق ذلك .

غير أن هذه المحاولات لم تفد التجارة الانجليزية أو الفرنسية شيئاً إذ ظل إبراهيم بك ومراد بك يزيدان من قيمة الضرائب المفروضة على التجارة ، ويميلان إلى المصادرات والغرامات والاتاوات لزيادة دخلهما من

الأموال ، هذا فضلاً عن نقص الأمن وتعدى العربان على قوافل التجارة بين القاهرة والسويس . وإزاء هذا كله اضطرت انجلترا إلى غلق قنصليتها فى مصر فى عام ١٧٩٣ م ، وعزلت قنصلها « جورج بلدوين » ، رغم أنه كان من أشد المتحمسين لفتح الطريق التجارى البرى عبر مصر . كذلك كانت فرنسا قد نقلت قنصليتها فى عام ١٧٧٧ م من القاهرة إلى الاسكندرية بعيداً عن الاضطرابات والمصادرات ، وكلفت « شـــارل مجالون » — أحد التجار الفرنسيين المقيمين فى مصر منذ وقت طويل — بالاشراف على مصالحها فى القـاهرة ، ثم أصبح بعد نشوب الثورة الفرنسية القنصل العام لفرنسا فى مصر . ورغم أن مجالون كان قد استطاع أن يتقرب إلى مراد بك ويكسب ثقته ، وترتبطا زوجتيهما بعلاقات حميمة ، إلا أن هذا لم ينقذه من مظالم المماليك ، وعلى رأسهم مراد بك . فى عام ١٧٩٤ م فرض إبراهيم بك على التجار دفع مبلغ كبير من المال ؛ وتعرضت بضائعهم للمصادرة حتى اضطروا إلى غلق متاجرهم ، وحاول بعض التجار الفرنسيين الانسحاب إلى رشيد والاسكندرية ولكن مراد بك قبض عليهم ، وأبقاهم فى القاهرة عدة أشهر ؛ ثم سمح لهم بمغادرتها وكان على رأس هؤلاء « مجالون » نفسه .

وقد تضافرت كتابات الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر خلال القرن الثامن عشر الميلادى ونشروا مشاهداتهم وآراءهم حينذاك ؛ كذلك شكاوى التجار والقناصل الفرنسيين وعلى رأسهم « مجالون » ، الذى حرص على السفر إلى باريس لمواجهة المسئولين بها بعد أن شعر بعدم جدوى كتاباته إليهم ، تضافرت هذه الجهود كلها فى تهيئة أذهان المسئولين الفرنسيين لاهمية احتلال مصر ، نظراً لمزاياها الخاصة ، ولتكون نواة للامبراطورية الفرنسية فى الشرق ، ولتنطلق منها لمنافسة انجلترا فى الهند . ولهذا كله كان الاتجاه إلى مصر حينذاك هو البديل الوحيد لغزو انجلترا فى عقر دارها ، فلم تتردد فرنسا — عندما شعرت بعجزها عن غزو انجلترا نفسها — فى توجيه « حملة انجلترا » إلى مصر ، لتحقق أغراضها المتعددة هناك .

وكانت انجلترا تدرك أهمية موقع مصر الجغرافى بالنسبة للتجارة الشرقية كما سبق أن أشرنا ، كما أنها لم تكن تسمح حينذاك لإحدى الدول الأوربية باحتلالها رغم أنها لم تكن تفكر فى الإقدام على ذلك حتى ذلك الوقت . ومن المعروف أن انجلترا ظلت فى «حالة حرب» مع فرنسا منذ عقد التحالف الدولى الأول فى عام ١٧٩٣م ، لذلك كله فقد حرصت على مراقبة الشواطىء الفرنسية الشمالية والجنوبية لمراقبة النشاط الفرنسى . وعندما تسربت إليها أخبار خروج الأسطول الفرنسى إلى مياه البحر الأحمر ، نشط أمير البحر الإنجليزى « نلسن » فى اقتفاء أثره ، وعمدت انجلترا بكل جهودها منذ ذلك الحين على إفشال الحملة الفرنسية على مصر .

ويعتبر إلحاق الهزيمة بالأسطول الفرنسى وتحطيمه فى معركة « أبى قير البحرية - بعد حوالى شهر من وصول الحملة إلى مصر - أولى الضربات التى أنزلتها انجلترا بهذه الحملة ومن أخطرها فى نفس الوقت ، فقد أصبح جيش فرنسا فى مصر — منذ ذلك الحين وإلى أن تم جلائه — تحت رحمة انجلترا ، بعد أن فرضت حصارها على الشواطىء المصرية ، وقطعت الصلات بينه وبين الوطن الأم . وفى نفس الوقت نشطت انجلترا دبلوماسياً فى القسطنطينية عن طريق مندوبها هناك « السير سبنسر سميث » ، كما أرسلت أخاه «السير سدنى سميث » — أحد خبرائها بالشئون العثمانية — إلى هناك لمساعدة أخيه فى دفع تركيا على إعلان الحرب على فرنسا ، وعلى تجهيز الجيوش والأساطيل لطرد حملتها من مصر . وحرصت انجلترا كذلك على إرسال بعثة من الخبراء العسكريين لإعداد الجيش العثمانى للزحف على مصر ، لأنها كانت ترى أن تتزعم الامبراطورية العثمانية التحالف الثلاثى - العثمانى الروسى الإنجليزى - فى مواجهة الحملة والاضطلاع بعبء محاربتها ، حتى تتيح الفرصة أمام روسيا للتدخل فى شئون الامبراطورية العثمانية ، وحتى لا تصل الجيوش الروسية إلى شواطىء البحر المتوسط . وقد بذل سيدنى سميث جهوداً كبيرة فى

القسطنطينية لحث المسئولين بها على إرسال جيوشها إلى مصر ، وأرسل إلى حكومته بضرورة مدالامبراطورية العثمانية بالمال لإعداد جيشها وأسطولها - بعد أن لمس مدى ضعفها - أو أن تقدم - أى حكومته جزءاً من أسطولها لخدمة الأغراض العسكرية العثمانية . وفضلا عن ذلك ، فقد سافر بنفسه إلى رودس ، وإلى «عكا» لتنسيق المخططات العسكرية مع أميريهما ، بل وساهم الأسطول الإنجليزى فى مساندة أحمد باشا الجزار أثناء حصار بونابرت له فى عكا ، وكان وجود هذا الأسطول أمام سواحل الشام من أهم أسباب فشل الحملة الفرنسية هناك . وتلى ذلك مساهمة الأسطول الإنجليزى فى نقل حملة مصطفى باشا إلى الشواطىء المصرية الشمالية — أولى الخطوات الإيجابية التى اتخذها العثمانيون لطرد الفرنسيين من مصر — ولكن منيت هذه الحملة بالفشل فى موقعة «أبى قير البرية» - يوليه ١٧٩٩م - على يد بونابرت بعد عودته من الشام بقليل .

ولم تقف جهود انجلترا لإجلاء الفرنسيين عن مصر عند هذا الحد ، بل شاركت فى مفاوضات الصلح مشاركة فعالة ، كما تحول موقفها — تجاه الحملة الفرنسية — من مجرد النشاط الدبلوماسى أو المساعدات الجانبية للعثمانيين ، إلى إرسال حملتين حربيتين إلى مصر للاشتراك مع حملة الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا فى طرد الفرنسيين وذلك عندما شعرت بعجز العثمانيين بمفردهم عن اتخاذ خطوة باترة ضد الفرنسيين ، فأرسلت حملة البحر الأبيض إلى الشواطىء المصرية الشمالية ، وأرسلت حملة أخرى من الهند عن طريق البحر الأحمر إلى القصير . وكان النشاط الإنجليزى فى البحر الأحمر قد بدأ مبكراً منذ مجىء الفرنسيين إلى مصر ، خوفا من أن يتخذ هؤلاء خطوة إيجابية لضرب النفوذ الانجليزى فى الهند ، فاستولت قواتهم فى أبريل ١٧٩٩ على جزيرة «بريم» عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى لسد هذا البحر ، ومنع تسرب السفن الفرنسية إلى الهند ، كما طافت بعض السفن الحربية بأرجائه لمراقبة

النشاط الفرنسى به ، وفى آخر عام ١٨٠٠ أرسلت قوة برية بحرية من الهند لمناوشة الفرنسيين فى مصر — وخاصة فى الصعيد — وذلك عن طريق احتلال ميناءى السويس والقصير ، ومد المماليك هناك بالأسلحة والذخائر عن طريق الميناء الأخير ، ثم أخيراً أرسلت حملة الهند — التى سبق الإشارة إليها — بقيادة «الجنرال بيرد» ، فوصلت القصير فى مايو ١٨٠١ م ، ومنها إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية ، وإن كانت قد وصلتهما بعد انتهاء المعارك بهما ، فقد كانت الحملة العثمانية من الشام ، والحملة الإنجليزية من البحر المتوسط أسبق منها فى الوصول الى مصر ، ومحاربة الفرنسيين فيها ، حتى أجبرتهم على التسليم والجلاء[1] .

موقف أهالى الجزيرة من الأحداث :

وبالإضافة إلى هذه النقاط الرئيسية - الموجزة - التى سبق الإشارة إليها، يجدر الإشارة أيضاً إلى أوضاع الامام المنصور على فى اليمن ، والشريف غالب بن مساعد فى الحجاز ، لا لدورهما فى أحداث الحملة مباشرة ، بل لعلاقتهما بما جاء فى النصوص التى أوردها مؤرخنا ، وخاصة أن كلا الرجلين انفعل بهذه الأحداث - كما انفعل بها كافة العامة من معاصريهم - وإن اختلف موقف كل منهما عن الآخر تبعاً للظروف التى أحاطت به مما ترتب عليه نتائج مختلفة .

فمن ناحية اليمن فقد كان يتمتع باستقلاله التام منذ أن خرج العثمانيون منه فى عام ١٠٤٥ هـ (١٦٣٥م) ، بعد أن نجح الامام القاسم بن محمد وأولاده

(١) لمزيد من التفصيلات عن الحملة الفرنسية على مصر ، يرجع الى كتابى المرحوم الدكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، والحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، فهما من أدق ما كتب فى اللغة العربية عن هذه الحملة .

فى إشعال الثورة ضد العثمانيين ، وفى جمع أبناء الشعب اليمنى حولهم حتى تم لهم الاستقلال ، وعندئذ أقاموا ما عرف فى تاريخ اليمن باسم الدولة القاسمية. ويعتبر الامام المنصور على هو الامام العاشر من أبناء هذه الأسرة ، وتولى الامامة فى اليمن سنوات طويلة فى المدة من ١١٨٩ — ١٢٢٤ هـ (١٧٧٤ — ١٨٠٩ م) .

وقد انتهت إلى هذا الامام ثروات الأسرة القاسمية وخزائنها ، فضلا عن سمعتها وهيبتها داخل اليمن وخارجه ، غير أنه حدث فى عهده ما جعله بداية ضعف هذه الأسرة وانهيار نفوذها . فقبله ، ظهر عدد من الأئمة الأقوياء من أبناء هذه الأسرة وعلى رأسهم الامام المتوكل على الله إسماعيل ، الذى استطاع أن يوحد أجزاء اليمن الطبيعية تحت سيطرته ، ويمد نفوذه من عسير ونجران شمالا إلى عدن وحضرموت جنوباً . أما فى عهد الامام المنصور على فقد كان سلاطين لحج قد انفصلوا عن سيادة صنعاء منذ سنوات وأصبحوا يدبرون شئونهم بعيداً عن الامامة ، كما اشتدت فى عهده ثورة بعض القبائل حتى تمكنت من محاصرة صنعاء نفسها بعض الوقت ، واستفحل بمنطقة تهامة أمر الشريف حمود . وفى نهاية حياة المنصور على — وكان الفساد قد تفشى نتيجة استئثار وزرائه بالسلطة — قام ابنه الأكبر بالثورة عليه واستأثر بالسلطة بعد أن قبض على أحد الوزراء ، وان أبقى أباه فى منصبه حتى توفى فى العام التالى لهذه الأحداث .

ورغم هذا كله ، فقد ظلت دولة الامامة مهابة فى عهده ، فتقرب إليه شريف مكة ، وكاتبه الصدر الأعظم بعبارات ملؤها الود والتفخيم ، وأتاه رسول انجلترا للتفاوض فيما يتعلق بصالحها فى اليمن وفى جنوب البحر الأحمر. ولا يرجع هذا الاهتمام إلى أن الامام كان أقوى شخصية فى اليمن فحسب ، بل يرجع هذا أيضاً إلى أهمية موقع اليمن عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى ،

وخاصة فى وقت اشتد فيه التنافس الاستعمارى والصراع البحرى بين انجلترا وفرنسا عقب احتلال الأخيرة لمصر حينذاك . لذلك لا نذهب بعيداً إذا رجحنا أن انجلترا هى التى دفعت السلطان العثمانى — بعد تحالفهما فى أول ١٧٩٩م كما ذكرنا — إلى الاتصال بالامام لجذبه إلى صفوفها ضد العدو المشترك وهو فرنسا ، إذ أن انجلترا هى التى تدرك جيداً أهمية البحر الأحمر بالنسبة لنفوذها ومصالحها فى الهند . وتتضح ضخامة ثروة هــذه الأسرة وارتفاع شأنها فى عهد الامام المنصور على من مظاهر سلوك واهتمامات هذا الامام ، فضلا عن اهتمامه بالعلماء وتقريبهم إليه وجمع الكتب النفيسة والتحف النادرة ، فقد قيل عنه : « سلك مسلك الملوك وجعل له ثلاثة وزراء وولاهم جميع الأمور ولم يشتغل بشىء من أمور مملكته إلا بالعماير والاصلاحات فى صنعاء وما حولها من المحلات المشهورة »[1] ، وجاء فى ترجمة أخرى له : « وهو الذى جعل على بئر العزب السور وتوسع فى إشارة القصور والدور »[2] .

ولا داعى هنا للتوسع فى ترجمة حياة الامام المنصور على ، إذ يكفى ما كتبه مؤرخنا لطف الله جحاف عنه فى « السيرة » التى خصصها له ، والتى استخرجنا منها نصوص الحملة ، كذلك يكفى ما ذكرته عن هذا الامام فى هامش النصوص ، ولكن ما يهم هنا هو إبراز أوضاع اليمن فى الفترات التى عاصرت أحداث الحملة الفرنسية على مصر . وتتمثل هذه الأوضاع فى

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٦١ .

(٢) زبارة : نيل الوطر من تراجم رجال اليمن فى القرن الثالث عشر ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

(كذلك ذكر الشوكانى ترجمة طويلة له فى كتابه : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ج ١ ، ص ٤٥٩ — ٤٦٧)

أن اليمن كان يتمتع باستقلاله حينذاك ، وأن الامام كان يتمتع بين معاصريه من الحكام المسلمين بمكانة عالية مستمدة من ماضى الدولة القاسمية رغم أن ما ظهر من ضعف وفساد فى عهده ، وأن الصراع البحرى الاستعمارى بين انجلترا وفرنسا فى البحر الأحمر والمحيط الهندى فى ذلك الوقت قد زاد من أهمية موقع اليمن الجغرافى ومن أهمية حكامه .

أما شريف مكة غالب بن مساعد (توفى عام ١٢٣١ هـ ١٨١٦ م) فقد كانت أوضاعه تختلف عن أوضاع إمام اليمن ، وهـو — أو بلاده — لا يتمتعان بالاستقلال . وربما كان الشريف لا يريد هذا الاستقلال إلا فى حدود معينة ، نظرا لظروفه وظروف بلاده التاريخية والطبيعية الخاصة . فإمكانيات الحجاز لا تقارن بإمكانيات اليمن الطبيعية والبشرية ، وعرف عنه حينذاك فقره المادى وضعفه السياسى والعسكرى ، لذلك عاش الحجاز أغلب فترات تاريخه فى العصور الوسطى أوضاعا سياسية خاصة ، فقد تداول حكمه جماعة الأشراف ، وكان هؤلاء يربطون أنفسهم بالدولة الأقوى فى العالم الإسلامى وخاصة بالقاهرة حتى يوفروا لأنفسهم العون المادى والحماية العسكرية . واستمر هـذا مع بداية العصور الحديثة ، إذ سارع الشريف بركات إلى الاعتراف بالسيادة العثمانية عند دخول مصر تحت سيطرة السلطان سليم الأول عام ١٥١٧ م ، فسارع السلطان بدوره إلى إقرار الشريف فى منصبه ، طالما أنه حصل على لقب حامى الحرمين الشريفين ، وظلت المصالح المتبادلة بين الطرفين هى التى تحكم العلاقة بينهما ، دون أن يفكر أى منهما فى تغييرها . وقد عكست هـذه العلاقة الخاصة نفسها على سلوك ومواقف الشريف غالب ، فهو يدرك من ناحية مدى ضعفه السياسى بين باقى المنافسين من الأشراف ، وهو يقدر من ناحية أخرى طبيعة علاقته بالدولة العثمانية لذلك فهو يعمل على تنفيذ مخططاتها ، ويقوم بدور الوساطة بينها وبين الحكام العرب والمسلمين القريبين ، وذلك كما فعل مع إمام اليمن (النص : ٦ ، ٧) .

وفى نفس الوقت كان يلمس مدى ضعف الدولة العثمانية ، ومدى عجزها عن حماية ولاياتها[٧] ، ويخشى أن تمتد يد بونابرت إلى بلاده ، لذلك سارع بالكتابة إليه وبمداهنته حتى يأمن جانبه (النص : ٩) . ولم يكن الشريف غالب — فى واقع الأمر — هو الوالى الوحيد من ولاة الدولة العثمانية الذى يتخذ مثل هذه الخطوة ، فقد سبقه إليها الكثيرون عندما كانوا يشعرون بالخطر الخارجى الداهم وبعجز الدولة عن حمايتهم ، وذلك مثلما فعل على باشا الألبانى عقب اكتساح بونابرت لإيطاليا واستيلائه على كافة أملاك البندقية ، مما جعله يقترب من الأملاك العثمانية فى البلقان[١] . ولا تقف مواقف الشريف عند هذا الحد ، فهو يدرك أيضاً حقيقة ضعفه الاقتصادى ، ويعمل على أن يستمر نشاطه التجارى المحدود بين موانىء البحر الأحمر ، إذ أن موارده الضئيلة لا تتحمل توقف هذا النشاط خلال الصدام الإنجليزى الفرنسى ، لهذا كله يستغل قرابته للامام — عن طريق انتسابهما الرسول صلى الله عليه وسلم — وينتهز فرصة الكتابة إليـــه عن أخبار الحملة فيطلب منه العناية بتجارته — وبسرعة شحنها — فى الموانىء اليمنية (النص : ١٠) ، وفى نفس الوقت ، يواصل إرسال تجارته إلى السويس بعد أن يمهد لذلك بالخطابات المتتالية للأطراف المتصارعة — الانجليزية والفرنسية — وتصل هذه البضائع إلى الميناء فى ذى الحجة سنة ١٢١٣ هـ (مايو ١٧٩٩ م) كما يقول الجبرتى : « وفيـه حضر إلى السويس تسعة داوات بها بن وبهار وبضـائع تجارية ، وفيها لشريف مكة نحو خمسمائة فرق بن . وكانت الإنجليز منعتهم الحضور فكاتبهم الشريف فأطلقوهم بعد أن حددوا عليهم أياماً مسافة التنقيل والشحنة ، وأخذوا منهم عشوراً وسامح الفرنسيس ابن الشريف من العشور لأنه أرسل لهم مكاتبة بسبب ذلك وهدية قبل وصول المراكب إلى السويس

(٧) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٨٨ .

بنحو عشرين يوماً وطبعوا صورتها فى أوراق وألصقوها بالأسواق »[1] .

وتتضح مرونة الشريف أيضاً ودبلوماسيته فى أواخر حياته ، فعندما هزم أمام قوات السعوديين واضطر إلى التقهقر إلى جدة ، اعترف بالسيادة السعودية ، وعاد إلى منصبه فى مكة . وعندما جاءت قوات محمد على باشا إلى الجزيرة العربية ، وقضت على النفوذ السعودى فى الحجاز ، سارع بالدخول فى طاعة محمد على غير أن الأخير قضى عليه بعد قليل[2] .

وهذه المواقف المرنة المتناقضة الصادرة من الشريف - والتى ترجع جميعها إلى ظروفه الخاصة وحرصه على الاحتفاظ بمنصبه - لاتقلل من تقديرنا لقوة شعوره الإسلامى الذى يظهر بوضوح فى نصوص خطاباته إلى الإمام المنصور على ، والذى بلغ قمته فى تحذيره للامام بعدم السماح لانجلترا - كما شاع حينئذ - بالحصول على قطعة أرض على السواحل اليمنية لإقامة قاعدة لهم بها إبان الأزمة الانجليزية - الفرنسية (النص : ١٤) .

النصوص والحملة :

وهكذا تتضح الأبعاد العامة التى أحاطت نصوص مؤرخنا اليمنى ، سواء الخاصة بالأطراف التى تتصل بأحداث الحملة مباشرة ، أو الخاصة بالأطراف التى انفعلت بهذه الأحداث وتناولتها النصوص بطريقة أو بأخرى . وتفيد هذه الأبعاد فى تحديد الاطار الذى يمكن من خلاله أن نتناول بعض ماجاء فى هذه النصوص - على سبيل المثال لا الحصر - لتتضح أمامنا مدى مشاركة

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ٣ ، ص٦٥ .

(٢) يرجع إلى التوسع فى ترجمة حياة الشريف غالب بن مساعد فى هوامش نصوص .

لطف الله جحاف فى الكتابة عن الحملة الفرنسية على مصر ، ومدى أهمية هذه المشاركة .

والواقع لقد تعددت الجوانب الجادة الملفتة للنظر فى كتابات المؤرخ ، فهو من ناحية يعرض أمامنا - كما ذكرت - المشاعر التى انتابت لدى المسلمين - رسمياً وشعبياً - عند وقوع هذه الطامة الكبرى على حد تعبيره ، أى احتلال الفرنسيين لمصر كما فى النص الأول وفى غيره من النصوص . وقد تشابه لطف الله جحاف فى هذه الناحية مع غيره من المؤرخين المسلمين المعاصرين وعلى رأسهم الجبرتى ، الذى افتتح حديثه عن أحداث الحملة الفرنسية بعبارته الشهيرة الباكية المتشائمة التى سبق ذكرها .

ومن ناحية ثانية ، أبرز لنا لطف الله جحاف جانباً من الصدام البحرى الانجليزى - الفرنسى الذى دار أمام الشواطىء العربية الجنوبية (النص: ٢ و ٣) عقب احتلال الفرنسيين لمصر . وفى هذين النصين الصغيرين يظهر تفوق البحرية الانجليزية على البحرية الفرنسية ، وأن أمراء هذه الشواطىء - خاصة سلطان مسقط - قد تعاطف مع القوى الانجليزية - ربما لقوة نفوذها فى المحيط الهندى - رغم أنه من المعروف أن بونابرت راسل الحكام المسلمين المجاورين لمصر - ومنهم صاحب مسقط - مثل حاكم أدرنة وحاكم طرابلس ، وإمام مسقط بل وطلب منه أن يكتب بدوره بهذه الأخبار إلى تيبو صاحب بالهند ، ثم كتب هو مباشرة إلى تيبو صاحب يخبره بعزمه على طرد الانجليز من الهند ، هذا بالاضافة إلى كتاباته إلى سلطان دارفور وشريف مكة[1] .

ومن ناحية ثالثة ، تزداد أهمية كتابات المؤرخ من وجهة نظرنا عندما تعرض لأخبار متطوعى الحجاز (النص: ٤) فقد تتبع أخبار هؤلاء المتطوعين

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٩٩ .

فى الحجاز ومصر ، وبين كيف ظهر الجيلانى ، وكيف بدأ فى دعوته للجهاد وفى إثارته للهمم حتى نجح فى جمع قدر كبير من المال فضلا عن المتطوعين ، ثم كيف دارت المعارك المتتالية بين هؤلاء المتطوعين وبين الفرنسيين فى مدن وقرى صعيد مصر ، وكيف تم التعاون بينهم وبين القوى المصرية من مماليك وقبائل عربية وغيرهم ضد العدو المشترك حتى استشهد الجيلانى وانهزمت قواته وتفرقت .

ومؤرخنا بهذه التفصيلات الطويلة التى ذكرها فى هذا النص ، قد تفوق على الجبرتى كثيراً ، إذ أن الأخير لم يذكر إلا النذر اليسير عن هؤلاء المتطوعين ، ولم يتتبع أخبارهم إلا فى مصر فقط . ومن السهل أن نفهم سبب ضعف كتابات الجبرتى عن هؤلاء ، إذ بعدت الأحداث ، ولم يكن شاهد عيان لها ، فتهادت إليه أخبارهم مهزوزة متناقلة كما كان شأن أخبار الحملة الفرنسية نفسها بالنسبة للمؤرخ اليمنى . ويبدو هذا واضحاً من العبارة القصيرة التى أوجز فيها الجبرتى أخبار الجيلانى وأتباعه ، فقد ذكر فى حوادث شهر شعبان عام ١٢١٣ هـ (يناير/فبراير ١٧٩٩ م) : « ومنها تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلا مغربياً يقال له الكيلانى كان مجاوراً بمكة والمدينة والطائف ، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة ، وأن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً فى معنى ذلك ، فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه ، فورد الخبر فى أواخره أنه انضم إليهم من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان خرج معهم مع غز مصر عند وقعة انبابة ، وركب الغز معهم أيضاً وحاربوا الفرنسيس ، فلم تثبت الغز كعادتهم وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعة من القرى ، وثبت

الحجازيون ثم انكفوا لقتالهم ، وذلك بناحية جرجا وهرب الغز والمماليك إلى ناحية إسنا وصحبتهم حسن بيك الجداوى وعثمان بيك حسن تابعه ، ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع وينفصل الفريقان دون طائل »[1] .

وقد تعمدنا أن نذكر هذا النص بكامله لتسهل المقارنة أمامنا بين الإثنين، غير أن هذا لا يعنى أن الجبرتى أهمل أخبار متطوعى الحجاز ، أو أنه تخلى عن دقته وجريه وراء الأحداث ، بل على عكس ذلك ، إذ اهتم بذكر الشذرات المتفرقة التى تكمل أمامنا نهاية الصورة التى رسم بدايتها ، ووضع معظم تفاصيلها ، مؤرخنا اليمنى لطف الله جحاف . ويبدو التكامل بين المؤرخين فى أن الجبرتى أبرز لنا مدى تأثير هؤلاء المتطوعين بالنسبة للأحداث فى مصر ، وبالنسبة للرأى العام المصرى ابان الاحتلال الفرنسى ، وسار بنا لنعرف كيف انتهت أحوالهم ، وهى النهاية التى عبر عنها لطف الله جحاف فى عبارة عامة فقال « وانفصم بها (آخر المعارك) عقد نظام المتطوعة ، وذهب الناس إرسالا لا أمير لهم ، منهم الذاهب إلى مصر ، والذاهب إلى الشام ، والعائد إلى الحرمين »[2] . فنى خلال وجود المتطوعين الحجازيين فى الصعيد كانوا مثار اهتمام الرأى العام القاهرى ، وخاصة لأن وجودهم هناك عاصر وجود بونابرت أمام أسوار عكا وانقطاع أخباره وتأخرها عن القاهرة ، فتحدث الناس عن هذا كله وهمسوا فيما بينهم إلى الحد الذى دفع الفرنسيين إلى إعداد منشور خاص وإلصاقه بالأسواق لوقف هذه الهمسات ، وذلك كما قال الجبرتى : « وكان الناس أكثروا من اللغط بسبب انقطاع الأخبار عن الفرنسيس المحاصرين لعكا والروايات عمن بالصعيد والكيلانى والأشراف

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ ٣ ، ص ٤٦ .

(٢) انظر النص الرابع فى الكتاب .

الذين معه وغير ذلك »[1] . وقد امتلأ هذا المنشور بالوعيد والتهديد ، مع شرح وجهة نظر الفرنسيين فيما يتناقله الناس فيما بينهم ، فجاء به عن المتطوعين الحجازيين ما يأتى : « فإن حضرة سارى عسكر دوجا الوكيل بلغه أن أهل مصر وأهل الأرياف يتكلمون بكلام لا أصل له من قبل الأشراف ، والحال أن الأشراف الذين يذكرونهم ويكذبون عليهم جاءت أخبارهم من حضرة سارى عسكر الصعيد يخبر الوكيل دوجا بأن الأشراف المذكورين الذين صحبة الكيلانى قد مزقوا كل ممزق وانهزموا وتفرقوا ، فلم يكن الآن فى بلاد الصعيد شيء يخالف المراد ، وسلم من الفتن والعناد »[2] . وزيادة على ذلك فقد أفاد الجبرتى بأن وجود الجيلانى فى الصعيد كان من بين الأسباب التى برر بها بونابرت انسحابه من أمام أسوار عكا ، وذلك كما جاء فى خطاب بونابرت الذى أرسله إلى القيادة الفرنسية بالقاهرة والذى ذكر به خمسة عشرة سبباً : « السادس : بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلانى لناحية الصعيد »[3] .

ويمدنا الجبرتى أيضاً بأخبار عن نشاط بقايا هؤلاء المتطوعين الذين بقوا فى القاهرة فيقول أنهم انضموا – مع غيرهم – إلى أحد المغاربة الذى دعا إلى جهاد الفرنسيين أولا فى البحيرة ثم زحف بأتباعه إلى القاهرة ، فكان مصدر إزعاج كبير للفرنسيين بها ، فقال : « والتف عليه طائفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كان قد قدم صحبة الجيلانى الذى تقدم ذكره »[4] . وأخيراً فالجبرتى يهتم أيضاً بذكر وفاة الجيلانى ، غير أنه يذكر أموراً – خلال خبر الوفاة – تثير الدهشة ، ولا يذكرها لطف الله جحاف

---

(١) الجبرتى . عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، حـ ٣ ، ص٥٦ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) نفس المرجع : ص ٧١ .

(٤) نفس المرجع : ص ٩٨ .

فى نصه ، مما يدل على أن العائدين إلى الحرمين من المتطوعين لم يرددونها ، وربما سمعها المؤرخ ولم يأبه بتسجيلها لغرابتها أو لعدم تصديقه لها ، وذلك على خلاف الجبرتى الذى سجل ماوصل إليه ، فقد قال فى خلال أحداث شهر ذى القعدة ١٢١٣ هـ (أبريل/مايو ١٧٩٩ م) : « ومنها أن الكيلانى المذكور آنفاً توفى إلى رحمة الله تعالى وتفرقت طائفته فى البلاد حتى أنه حضر منهم جملة إلى مصر ، وكان أكثر من يغامر عليهم أهل بلاد الصعيد ، فيوهمونهم معاونتهم وعند الحروب يتخلون عنهم ، وبعض البلاد يضيفهم ويسلط عليهم الفرنسيس فيقبضون عليهم »[1] .

وليست هذه الأمور مما تستلزم الوقوف عندها لتحقيقها إذ ربما تكون من الشائعات التى تنتشر بعد أن تلحق الهزيمة بجيش من الجيوش ، ولكن مايهمنا هو أن نشير إلى أهمية النص الذى أورده لطف الله جحاف ، وأنه رغم تفوقه على الجبرتى فيما ذكره من تفاصيل عن متطوعى الحجاز ، فإنه يمكن القول بأن كل منهما قد أكمل الآخر فى هذه الناحية ، وأنهما تعاونا فى إعطاء صورة أوضح عن دور هؤلاء المجاهدين فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر .

ومن ناحية رابعة ، ينفرد لطف الله جحاف تقريباً - بالنسبة للمؤرخين المسلمين المعاصرين - بذكر الحوادث التى وقعت فى جنوب الجزيرة العربية ، وذلك أمر طبيعى نظراً لموقعه فى هذه البقعة . ويتمثل هذا بشكل كبير فى النص الثالث عشر الذى تحدث فيه المؤرخ - حديث شاهد عيان - عن رسول انجلترا إلى الامام ، وعن طبيعة المهمة التى أتى من أجلها إلى صنعاء . وقد صور لنا الحفاوة التى استقبل بها هذا الرسول ، كذلك المظاهر الرسمية التى تعمد الإمام استقباله خلالها ، تعبيراً عن هيبة الدولة وقوتهـــا فى ذلك

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ٣ ، ص٦٠ .

الحين . وحدد المؤرخ أيضاً مهمة الرسول الإنجليزى بأنه يطلب الاستئذان فى إقامة قاعدة إنجليزية عند باب المندب للوقوف أمام الزحف الفرنسى إلى المحيط الهندى ، باعتبار أن انجلترا حينذاك كانت حليف السلطان . وهنا ترفض القوى المحلية فى عدن « إلا أن يأخذوا إذناً من الإمام » ويرفض الإمام بدوره مطالب الإنجليز ، بل ويثور الرأى العام اليمنى ، ويلتهب سخطه على هذا الرسول الذى جاء ليقتطع جزءاً من الأراضى اليمنية ، ويصل هذا السخط إلى الحد الذى يدفع الإمام إلى إحاطة هذا الرسول بقوة من الجند للمحافظة على حياته أثناء سفره ، أو على حد تعبير المؤرخ : «وأصحبه جماعة من جنده يحفظونه من رعاياه» . ويواصل تأكيد وجهة نظره الإسلامية ، فيقول أن الرسول عاد « منكسراً خايباً » لا لعدم إجابة طلبه فحسب ، بل لما بلغه من أخبار عن زحف جيوش السلطان العثمانى على مصر . وقوله هذا يؤكد وجود العداء التقليدى بين الشرق والغرب الذى ترجع جذوره إلى العصور الوسطى . وأهمية هذا النص تدور حول إبراز المشاعر الاسلامية والروح الوطنية المنتشرة حينذاك ضد كل ماهو أوربى ، فرغم تحالف انجلترا مع السلطان العثمانى ، ورغم أن هذا الأخير قد أوصى فى كتبه إلى الشريف غالب وإلى الإمام المنصور على بتقديم كافة التسهيلات لحليفيه — انجلترا وروسيا — خلال الحرب الدائرة ضد فرنسا ، إلا أن هذين الحاكمين لم يستجيبا لتوصية السلطان ، بل ويكتب الشريف إلى الإمام كتاباً خاصاً يحذره من إجابة مطالب انجلترا عندما شاع خبر الرسول (النص : ١٤) ، فيرد الامام (النص : ١٥) مطمئناً الشريف بأنه لن يسمح لانجلترا بوضع قدمها على السواحل اليمنية ولو اضطر إلى استعمال العنف وإشعال الحرب .

وهذه الأهمية الخاصة لهذا النص تغطى فى الواقع أهميته التاريخية ، أو بمعنى أدق تلك الأحداث والحقائق التى يمدنا بها ، وخاصة لأن هناك من يذكر أن مجىء الرسول الانجليزى إلى الإمام إنما كان لأغراض أخرى غير

تلك التي ذكرها مؤرخنا لطف الله جحاف ، وأن الرسول قد نجح في مهمته ، فوافق الإمام على مطالبه واستقبله في حفاوة ظاهرة . وترجع أهمية الرأى الآخر إلى أنه صادر من أحد السياسيين الانجليز الذين عملوا في عدن بعد احتلالها ، وأنه اعتمد على الوثائق الانجليزية في بمباى بالهند . ويهمنا من هذا الرأى أن نذكر أنه من ناحية ، كان هذا الرسول هو الدكتور برنجل Pringle الذى كان يعمل مساعد جراح في وكالة بمباى الانجليزية ، وأنه كلف أثناء وجوده بميناء « المخا » بأن يحمل رسائل وهدايا إلى الامام ، فغادر الميناء في مايو (١٧٩٩م) متوجهاً إلى صنعاء ، وأن هذه الرسائل كانت من الحاكم العام الانجليزى في الهند . ومن ناحية أخرى ، أن هذا الرسول كان عليه أن يحصل على أوامر من الامام إلى « عماله » في الموانىء اليمنية لازالة بعض العقبات التي تعترض التجارة الانجليزية بها[١] .

ولا يهمنا هنا الخوض في ذكر التسهيلات التجارية والضمانات البحرية التي منحها الإمام للسفن الإنجليزية في الموانىء اليمنية ، بل يهمنا أن نقول أن ماذهب إليه هذا الكاتب يتفق — إلى حد كبير — مع تسلسل الأحداث في المنطقة حينذاك . إذ كانت انجلترا قد احتلت جزيرة بريم في الثالث من شهر مايو نفسه ، دون استئذان من الإمام أو من أية قوى محلية أخرى ، بل كان ذلك لحاجة المعركة مع فرنسا ، واعتماداً على قوتها البحرية . وزيادة على ذلك ، انسحبت القوات الإنجليزية من الجزيرة لعوامل تخص المصالح الانجليزية في المنطقة ، أى لعوامل ذاتية وليس لأن الإمام — وغيره — رفض إقامتهم هناك . فقد شعر الانجليز — في الجزيرة — بعدم صلاحيتها للاقامة بها لرداءة مناخها ومائها ، وفي نفس الوقت كان سلطان لحج وعدن قد وافق

---

(١) Playfair, R. L. : A History of Arabia Felix or Yemen, p.p. 123 – 124

على إقامة القوات الموجودة بالجزيرة فى عدن طوال الفترة التى تحتاجها للوقوف أمام تسرب السفن الفرنسية إلى المحيط الهندى ، بل وأهم من هذا كله هو شعور انجلترا بالارتياح عقب إلحاق الهزيمة بالأسطول الفرنسى فى معركة أبى قير البحرية ، إذ تحققت حينذاك من عجز الحملة الفرنسية فى مصر عن تهديد النفوذ الانجليزى فى الهند .

ولكن ماذهب إليه هذا الكاتب الانجليزى - واتفاقه مع تسلسل الأحداث - لايقلل فى الواقع من قيمة ماذهب إليه مؤرخنا العربى . فربما كان احتلال جزيرة بريم - قبل وصول الرسول الانجليزى إلى صنعاء بقليل - قد احتل جزءاً من المفاوضات التى دارت بين الرسول والامام ، وأن الكاتب لم يشر إلىذلك لأنه ينظر إلىالتاريخ من وجهة نظر إنجليزية ؛ فلم يهتم إلا بذكر مايخدمالتاريخ الانجليزى وتطوره فىالمنطقة . أمامؤرخنا العربى فقد نظر أيضاً إلى الأحداث - أى إلى مهمة هذا الرسول - بوجهة نظر عربية ، وركز حديثه حول احتلال انجلترا لبقعة يمنية ، فغطى هذا التركيز على باقى أغراض هذه المهمة .

وكان لطف الله جحاف محقا فى اتجاهه هذا ، فاحتلال جزيرة بريم ، والتهاب الأحداث فىشمال البحر الأحمر وجنوبه ، وانتشار الإحساس العام بين العرب والمسلمين - عقب احتلال فرنسا لمصر - بأن أوربا - وليس فرنسا فحسب - تريد ابتلاع العالم العربى والإسلامى ، كان هذا كله كفيل بأن يسيطر على مؤرخنا وعلىكتاباته فيوجهها كما شاهدنا . ولا شك أن هذا التوجيه الخاص هو الذى أعطى لنص مؤرخنا الأهمية الزائدة التى جعلتنا نقف أمامه هذه الوقفة ، لنشير من ناحية إلى أهميته فى عرض المشاعر والاتجاهات المنتشرة حينذاك ، ولنقف من ناحية أخرى على الأحداث التاريخية التى قدمها لنا .

رأى فى قيمة النصوص :

وهكذا يتضح أمامنا بعض الأمثلة من مجموعة الكتابات التى خطها المؤرخ بقلمه ، كما يتضح أيضاً أن هذه المجموعة من النصوص تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، قسم لا يقدم حقائق تاريخية تتعلق بالحملة ، بل تنحصر أهميتها فى أنها تبرز الأقوال والشائعات التى دارت حينذاك فى الجزيرة العربية عن الحملة الفرنسية ، أى الصورة التى وصلت بها أخبار الحملة إلى بلد عربى بعيد هو اليمن فى وقت صعبت فيه الاتصالات والمواصلات بين البقاع المختلفة . وتتمثل نصوص هذا القسم بوجه عام فى النصوص الخاصة بوقائع الحملة فى مصر والشام ، التى تحدثنا عن نماذج لها عند التعرض لنقاط الضعف لدى المؤرخ . وقسم ثان يمكن أن نصفه بأنه تكميلى ، أى أنه مما يعطى تفصيلات كثيرة جديدة بالنسبة لبعض الوقائع والأحداث المعروفة عن الحملة من قبل ، وأفضل ما يمثل هذا القسم هو النص الذى تعرضنا له الخاص بمتطوعى الحجاز . وقسم ثالث يمكن أن نطلق عليه صفة الجدة لأنه تناول بعض الأحداث التى وقعت جنوب البحر الأحمر نتيجة التهاب الأحداث فى شماله ، أى كانت ذات صلة بالحملة الفرنسية ، وخير ما يمثل هذا القسم هى التى مست الصدام البحرى الإنجليزى — الفرنسى ، والتى تعرضت لاتصال انجلترا بالإمام فى صنعاء .

أما المجموعة الثانية من نصوص مؤرخنا فهى مجموعة الخطابات التى أثبتها فى كتابه ، وهو وإن لم يكن له فضل فى تأليفها ، فإن له كل الفضل فى تجميعها وتسجيلها ، إذ أنه بذلك قدم لنا مجموعة من الوثائق المتعلقة بالحملة الفرنسية وعرض أمامنا مجموعة من المراسلات التى دارت بين بعض الحكام العرب والمسلمين حول موضوع الحملة . ولقد تمسك المؤرخ - عند تسجيله هذه الخطابات فى كتابه - بتقليد كان سائداً لدى المؤرخين المسلمين من سابقيه ومعاصريه ، فوفروا بذلك أمامنا الوثائق الخاصة بعصورهم ، وعوضوا نقص

الدفاتر والسجلات والملفات الخاصة بأجهزة الحكومات ، ذلك النقص الذى يعانيه الباحثين المحدثين . وتمسك مؤرخنا بهذا التقليد ليس هو مصدر إعجابنا الوحيد به ، بل يتضاعف تقديرنا له إذا وقفنا على الجهد الذى بذله من أجل تجميع هذه الخطابات وتسجيلها . فهو من ناحية لم يبدأ فى تسطير كتابه إلا بعد وفاة الإمام الذى كتب سيرته والذى عاصر أحداث الحملة ، أى أنه لم يتمكن من الحصول على هذه الخطابات فى حينها مباشرة ولكن نتيجة ارتفاع شأنه الوظيفى فى صنعاء أواخر عهد الإمام المنصور ثم فى عهد ابنه ، ونتيجة علاقته الوثيقة بكبار المسئولين والوزراء فى هذين العهدين ، وخاصة لأنه وضع مؤلفه هذا بتشجيع من ابن الإمام كما سبق أن أشرنا . ومن ناحية أخرى ، فالمؤرخ يحرص على تسجيل هذه الخطابات فى كتاب خاص بتاريخ اليمن فى فترة معينة ، ويدور حول « سيرة » أحد الأئمة ، بل وملأ تاريخه بأدق التفاصيل — مثل المنازعات القبلية والتغيرات الفلكية — التى كانت كفيلة بشغله عن البحث وراء هذه الخطابات لتسجيلها فى كتابه ، وكان يكفيه — بخصوص الحملة الفرنسية — أن يدون لنا انفعالاته وانفعالات معاصريه بأخبار الحملة ، وربما وقع فى اليمن أو فى البحار المحيطة به من أحداث تتعلق بها ، إذ كان هذا فقط يعد مفخرة له ، ويميزه على غيره من معاصريه .

وربما يكون من الصعب حصر نقاط هذه الخطابات من الناحيتين الشكلية والموضوعية ، إذ نرى أنه من الضرورى الرجوع إلى كل منها على حدة حتى نستشف منها ما نشاء ، ولكن يمكن هنا أن نشير إلى بعض الخطوط العامة التى تحتويها هذه الخطابات دون الدخول فى تفاصيلها . فمن ناحية ، تعبر هذه الخطابات عن طبيعة العصر الذى كتبت فيه بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، أو بالأحرى تعكس جميع الصفات التى تميزت بها الكتابة الإنشائية حينذاك . فقد وضح بالخطابات الميل الشديد إلى التفخيم ،

واستعمال الألقاب الضخمة ، والألفاظ الرنانة ، والمقدمات الطويلة ، حتى أن مؤرخنا لطف الله جحاف كان يمل أحياناً هذا كله فيهمله ، ويكتفى بأن يورد موضوع الخطاب مباشرة بعد أن يستعمل تعبيراً عاماً مثل : « يذكر فيه بعد الترجمة » (النص : ١٤) . وبالإضافة إلى هذه الناحية الشكلية فهناك ناحية أخرى هى اتباع أسلوب السجع فى هذه الخطابات باعتباره من المحسنات اللفظية ، ورغم ما كان معروفاً من عيوب هذا الأسلوب فى حد ذاته ، فقد كانت اللغة العربية حينذاك تمر بفترة من الضعف والانهيار ، مما جعل الخطابات هذه تمتلىء بالتعبيرات العامية والألفاظ الركيكة ، لحدا هذا بالمؤرخ إلى أن يصف كتابى الصدر الأعظم ووالى جده العثمانى بقوله : « وفى ألفاظهم وتسجيعاتهم هذه ركة ظاهرة » (النص : ١٨) ، وذلك رغم أن أسلوبه هو كان لا يفضل أسلوب غيره من معاصريه . وإلى جانب هذا كله فقد حشدت الخطابات بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ، تشبها بالسابقين من الكتاب ، وتدعيماً للقضية التى تدور حولها هذه الكتابات .

أما الجانب الآخر - أى الموضوعى - لهذه الخطابات ، فقد دار حول قضية واحدة ، هى قضية الدفاع عن الوطن العربى الاسلامى أمام الفرنسيين وتغلف بغلاف واحد هو الغلاف الاسلامى . فقد تحدث الحكام إلى بعضهم البعض باسم الأخوة الدينية الاسلامية ، وناشد كل منهم الآخر الوقوف أمام الفرنسيين باسم الاسلام ، واعتمد السلطان العثمانى على الروح الاسلامية فى ندائه إلى الجهاد ضد الفرنسيين . ومن البديهى أن يكون الغلاف العام لهذه الخطابات هو الغلاف الاسلامى ، فقد كان الدين منذ بداية العصور الوسطى وحتى ذلك الحين - بالنسبة للعالم العربى والاسلامى على الأقل - هو الإطار الذى يحدد معالم الحياة الفكرية والثقافية والسلوكية بل والقومية إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير الحديث .

ويلاحظ أنه فى داخل هذا الإطار العام ، احتوت الخطابات على نقاط

فرعية متعددة. إذ نجد أن الشريف غالب يستغل - إلى جانب الأخوة الإسلامية - العلاقة الأسرية التى تربطه بالإمام عن طريق انتساب كليهما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويحاول إبرازها فى جميع خطاباته ، بل ونرجح أن السلطان العثمانى استغل هذا الرابطة بين الشريف والإمام ، ودفع الأول إلى الاتصال بالثانى لجذبه إلى جانب القوى الإسلامية . ونجد أيضاً أن الشريف ينتهز فرصة التخاطب مع الإمام عن طريق هذه المراسلات ليومىء فى إحداها إلى مطلب خاص وهو التوصية بشحن سفنه فى أوقات مبكرة أثناء وجودها بالموانىء اليمنية . ونلمس أيضاً - فى هذه الخطابات - أن السلطان العثمانى يستغل زعامته الدينية للعالم الإسلامى - السنى على الأقل - ليفرض من خلالها عرض قضية احتلال فرنسا لمصر من وجهة نظره الخاصة ، ويطلب من الشريف والإمام معاداة أعدائه ومحالفة أحلافه . ونلحظ كذلك المبالغة فى التعبير عن المواقف ، كما نرى فى تعاطف الإمام مع قضية مصر ، وكما نلمس فى تأكيد وقوفه أمام انجلترا إذا حاولت احتلال جزء من سواحله . وتعبير المبالغة هنا لا يعنى الشك فى صدق نواياه ، بقدر ما هو إبراز لطريقة معينة - فى الأسلوب والتفكير - كانت سائدة وقتذاك .

وقد لفت نظرنا أيضاً ذلك الأسلوب المبالغ فيه ، الذى يظهر به التوجيه المقصود ، والذى صيغ به تقرير حكومة الإدارة إلى بونابرت عند قيام الحملة ، وحصلت عليه الحكومة العثمانية بطريقة سرية ، وأرسل به - بعد ترجمته إلى العربية - إلى الحكام المسلمين للاطلاع عليه . فقد صاغت الحكومة العثمانية هذا التقرير بشكل خاص لإثارة المسلمين ضد فرنسا ، وضد نواياها العدوانية بالنسبة للعالم الإسلامى بوجه عام . ولكن يلاحظ أن العثمانيين محقون فى استخدام هذه الصياغة الخاصة ، إذا كانوا يخوضون معركة ضارية مع الاستعمار الفرنسى حينذاك ، ويحق لهم استعمال كل الأسلحة الدعائية والإعلامية اللازمة فى هذه المعركة ، وإن كان هذا كله لا يعنى أن هذا

التقرير - فى صورته هذه - قد أغفل النقاط الرئيسية التى جاءت فى التقرير الحقيق - الذى نشر فيما بعد - وذلك كما يتأكد لنا عند المقارنة بين النصين . فقد كان هذا القرار « يتألف من مقدمة وست مواد ، اشتملت المقدمة على الأسباب التى أقنعت « حكومة الإدارة » بإرسال الحملة على مصر ، لعقاب البكوات المماليك أصحاب السيطرة على الحكومة فى مصر والذين أنشأوا صلات ودية وثيقة مع الإنجليز ، فأساءوا معاملة الفرنسيين ، ونهبوا أموالهم ، واعتدوا على أرواحهم . كما أنه لما كان الإنجليز قد استولوا بطريق الغدر والخيانة على رأس الرجاء الصالح ، وجعلوا استخدام هذا الطريق متعذراً على السفن الفرنسية ، فقد بات من واجب حكومة الجمهورية أن تبحث عن طريق تجارى آخر . ونصت المادة الأولى على إعطاء بونابرت قيادة القوات البرية والبحرية اللازمة للاستيلاء على مصر ، ثم طلب إليه فى المادة الثانية أن يطرد الإنجليز من ممتلكاتهم فى الشرق أو فى الجهات التى يستطيع الوصول إليها ، وأن يقضى على مراكزهم التجارية فى البحر الأحمر خاصة . كما طلب إلى بونابرت فى المادة الثالثة أن يشق قناة فى برزخ السويس ، وأن يبذل قصارى جهده حتى يبسط سلطان حكومة الجمهورية على البحر الأحمر . ونصت المادة الرابعة على أن يعمل قائد الحملة على تحسين أحوال أهل البلاد من المصريين . وطلبت إليه الحكومة فى المادة الخامسة أن يعمل على الاحتفاظ بعلاقات الود والصداقة مع السلطان العثمانى ورعاياه . ولما كانت حكومة الإدارة تريد أن يظل أمر هذه الحملة سراً مكتوماً ، فقد نصت المادة السادسة والأخيرة من أوامرها على أن تظل هذه الأوامر غير مطبوعة[1] » . من هذا العرض

---

(١) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٧٩

الموجز لمواد هذا القرار يتضح أن « النص العثماني » قد احتوى جوهر هذه المواد ، ثم عرضت بطريقة خاصة تثير حماس المسلمين « للجهاد ضد المعتدين » .

وأخيراً ، فلا شك أن مجموعة الخطابات هذه تحتوى الكثير ، وأن الرجوع إليها بنصها هو الذى يحقق اكتشاف المزيد .

وهكذا تتضح أمامنا بعض ملامح هذه النصوص ، بعد أن تعرضنا لشخصية المؤرخ ، ولكتابه ، ولكيفية التعرف عليه وكيفية العثور على كتابه ، ولم يبق أمامنا إلا الرجوع إلى النصوص نفسها .

النصوص



[١]

[استيلاء الفرنسيين على مصر وسبب ذلك]

سنة ١٢١٢ هـ.[١]

(١٨٥) وفيهـــا وردت الأخبار بدخول الفرانسة ، جعل الله ديارهم دارسة ، وغيرهم من الأفريج الأبالسة ، ديار مصر طهرها الله من الدنس فاستولوا[٢] عليها ، ومدوا أيدى الكفر إليها ، وأظهروا بها الفساد ، وعاثوا وتسلطوا على من بها من المسلمين ، ولاثوا كل ذلك بضرب من الخداع ، والمكر والحيل والأطماع . وقد أتينا على تفاصيل الأخبار ، وما نقل إلينا فى ذلك من صنع الكفار ، فى كتابنا « قرة العين بالرحلة إلى الحرمين »[٣] ، ولا بأس بالإشارة إلى ذلك على جهة الاختصار ، فنقول :

قد كان تقدم إلى مصر أحد كفار الفرنساوية من أولاد ملوكهم[٤]

---

(١) يلاحظ أن أحداث الحملة وقعت فى عام ١٢١٣ هـ . وليس فى عام ١٢١٢ هـ . وكانت بداية هذه الأحداث فى شهر محرم من العام المذكور (الجبرتى : جـ٣ ، ص٢) .

(٢) وردت فى النسخة (ن م. : ص ١٨٠ب) : واستولوا .

(٣) سبق أن أشرت فى خلال الدراسة التمهيدية أنى حاولت — وما زلت — العثور على نسخة من هذا الكتاب ولكنى لم أتمكن إلى الآن ، سواء بين طيات الفهارس العامة للمخطوطات أو لدى الأسر اليمنية . ويبدو أن سبب ضياعه أو إهمال شأنه هو صغر حجمه ، وكونه مجرد مذكرات عن رحلته إلى الحرمين .

(٤) يرجح أن المؤلف يشير بذلك إلى « شارل مجالون » ، أحد التجار الفرنسيين الذين أقاموا فى مصر مدة طويلة قبل مجىء الحملة الفرنسية إليها ، وفى خلال هذه المدة =

((لما))[1] رغب فى التجارة وسفر البحر، فما زال ينزل على مصر مرة بعد أخرى، حتى تمول منها أموالا، واستطابها مسكناً وحالا، فعرف متوليها رغوبه فيها، فطالبه ((بشىء من))[2] نفايس ((أهداها له، وهى))[3] مما جلبه آخر عام سبع ومئتين فأبى ذلك، فأفصح عليه بأن أمواله إنما نمت ببركاته، مع الإذن له بها فى بيوعاته ومشترياته. وكان إذ ذاك بمصر فحبسه وأرسل من يستخرج مطلوبه من مراكبه فوقع على ما يريد وأطلقه فى قيد الذل مهاناً[4]، فراح عنها ووصل إلى سلطان دياره بونابارته[5] بضم الموحدة، فواو ساكنة فنون فألف فموحدة فألف فراء مهملة ساكنة فمثناه فوقية مضمومة (١٨٦) فهاء ساكنة، وكان فى نفسه فى مصر لما يسمع من خيراتها، فعبأ أثقاله، وطلب رجاله، وأصلح أحواله، وهيأ خيوله وجماله، وسار فى مراكبه يخوض لجج البحار، وقدم لحول أصحابه الفجار، فوصلوا إلى سلطان الإسلام سليم بن

= توثقت علاقته بحكامها وخاصة بمراد بك. كذلك اعتمدت عليه حكومته فعينته مشرفاً على المصالح الفرنسية فى القاهرة عندما نقلت قنصليتها إلى الاسكندرية ثم أصبح القنصل العام الفرنسى فى مصر بعد قيام الثورة الفرنسية. وكانت شكاوى مجالون إلى حكومته من سوء معاملة المماليك للتجار الفرنسيين، وتقاريره عن أحوال مصر الداخلية ومدى ضعفها، من الأمور التى أغرت فرنسا على غزو مصر.

(١)، (٢)، (٣) زيادات من النسخة (ن م : ص ١٨٠ ب) لتوضيح المعنى.

(٤) إشارة إلى حادثة فرض الغرامات المالية الكبيرة على التجار الأوربيين عموماً بواسطة إبراهيم بك، ثم محاولة بعض التجار الفرنسيين مغادرة القاهرة فقبض عليهم مراد بك وسجنهم ثم أطلق سراحهم بعد بضعة أشهر.

(٥) يلاحظ أن نابليون بونابرت لم يكن « سلطان بلاده » حينذاك، بل كان فقط أحد قادة فرنسا الكبار فى ذلك الوقت، وعين قائداً عاماً للحملة الفرنسية على مصر لنجاحه الساحق فى حملته على إيطاليا، أما حكومة فرنسا وقتئذ فهى التى اشتهرت باسم « حكومة الإدارة ». وحرص المؤلف على ضبط الإسم يدل على ميله إلى الدقة.

مصطفى خان[١]، فقدموا بين يدى نجواه هدايا وتحف، وسألوه الاذن لهم بالخروج إلى الاسكندرية، ليعبروا منها إلى بحر السويس لحاجات لهم بالهند فأبى ذلك، ولم يسعفهم إلى ماهنالك، فتخللوا أخباره، وتفقدوا آثاره، فوجدوه منهمكا فى لذاته، شغفاً بطيباته، ورأوا أمه تحل الأمور وتعقد، وتصلح ماشاء وتفسد، فقدموا إليها مالاواسعاً، وسألوها طلبتهم، فأسعفت

---

(١) هو السلطان سليم الثالث بن السلطان مصطفى الثالث، تولى السلطنة فى المدة من ١٢٠٣ — ١٢٢٣ هـ (١٧٨٩ — ١٨٠٧ م) . ويعتبر من أوائل السلاطين الذين ظهروا فى القرن التاسع عشر، وعملوا على إصلاح أحوال الدولة العثمانية على أساس الاقتباس من نظم الغرب، إذ كان من المعجبين بالثقافة الفرنسية . وقد تلقت جيوشه فى بداية عهده عدة هزائم أمام روسيا والنمسا، واحتلت أجزاء من بلاده، فدفعه هذا إلى أن يبدأ خطوات الإصلاح، وجمع مجلساً من كبار رجال دولته للنظر فى شئون البلاد الداخلية، وخاصة الناحيتين الإدارية والعسكرية، وقد أمر السلطان بفتح المدارس العسكرية الحديثة، وكون فرقاً عسكرية جديدة، وأحضر الخبراء الأوربيين لتدريبها، ونظم شئون البحرية، وبنى عدداً من السفن الحربية . غير أن ظروف الدولة العثمانية — الخارجية والداخلية — لم تكن تساعد السلطان حينذاك على الاستمرار فى الاتجاه الإصلاحى، نظراً لتعدد الحروب التى نشبت بين السلطنة وبين جيرانها، وخاصة روسيا والنمسا . وعندما هدأت نسبياً تلك الحروب، اضطربت أحوال السلطنة ثانية نتيجة هجوم بونابرت على مصر، إذ اضطر السلطان إلى اعلان الحرب على فرنسا — بعد أن تم التحالف بينه وبين روسيا وانجلترا — وتجهيز الجيوش ولإرسالها إلى مصر، وظل منشغلا بهذا الأمر حتى تم الجلاء عن مصر، وعقد الصلح مع فرنسا فى عام ١٨٠٢ م . وتعقدت مشاكل السلطان كذلك عندما قام أنصار الدعوة الوهابية بالثورة فى الجزيرة العربية، واشتد ساعدها وطال أمدها حتى تم القضاء عليها فى عهد السلطان محمود الثانى على يد والى مصر محمد على باشا . وفى نفس الوقت قام صدام بينه وبين روسيا وانجلترا بعد أن أبعد حاكمى ولاشيا وملدافيا عن حكم المنطقتين، وفى المجال الداخلى، أثارت إصلاحات السلطان سليم الثالث حنق الجماعات العثمانية التقليدية، وعلى رأسها المفتى وفرق الانكشارية، أى الذين أضرت مصالحهم هذه الإصلاحات وقامت القلاقل فى البداية فى حامية عثمانية على البحر الأسود، حيث قتل الجنود ضباطهم، بل وكل من ينتمى إلى الإصـلاح أو النظم الجديدة بصلة، ثم امتدت الاضطرابات إلى باقى أنحاء الامبراطورية العثمانية وأصبحت الثورة عامة، تطالب بحل الفرق الجديدة . وقد اتخذ السلطان قراراً بإلغاء هذه الفرق للحد من إراقة الدماء، ولكن هـذا القرار شجع المتمردين على التمادى فى الثورة، وفى النهاية عزل السلطان .

أميانهم ، فجعلوا إليها صكا فى الاذن بالعبور من الاسكندرية ، فوضع خاتم السلطان على ذلك[١] ، فراحوا عن ديار الروم وقد تبلجت لهم المسالك ، فمروا بجزيرة مالطة من أعمال الغرب[٢] وهى تحت حوزة الانجليز[٣] ، فرأوها حاكمة على بحر الروم فبغتوها خوفاً من أن يفجاهم أمر من بعد ، فلا يجدون بدا من المرور بحوالى الجزيرة ، وكانت بينهما العداوة التى أخبر الله عنها فى كتابه[٤] فاستولوا عليها واستباحوا مافيها ، وهدموا قلاعها وحصونها ، وعاثوا تجارتها ، وقتلوا كبراءها[٥] ، وخلص الانقليز عنها وهو السلطان قنصل[٦] . بقاف مضمومة فنون ساكن فصاد مضمومة فلام ، وقصد سلطان الاسلام يشكو ماصنع به بونابارته، وجاءت الأخبار بأنه قدفاجأ الاسكندرية ،

---

(١) سبق مناقشة هذا الرأى للمؤلف خلال الدراسة التمهيدية، ص ٥٣ .

(٢) زيادة من النسخة (ن. م. : ص ١٧١ أ) .

(٣) لم تكن جزيرة مالطة « تحت حوزة الانكليز » حتى ذلك الوقت ، بل كانت تحت سيطرة وحكم فرسان القديس يوحنا منذ انتقالهم إليها عقب هزيمتهم فى جزيرة رودس أمام السلطان سليمان القانونى واستيلاء العثمانيين على الأخيرة فى عام ١٥٢٢م .

(٤) إشارة إلى ما ذكره القرآن الكريم عن العداء بين أهل الكتاب ، وهذا تأكيد لثقافة واتجاه المؤلف الدينيين ، ومن المعروف أن التنافس الانجليزى الفرنسى ، كان قائماً على أشده منذ قرنين من الزمان .

(٥) وردت فى النسخة (ن. م : ص ١٨١ أ) : كبارها .

(٦) المقصود هنا هو قنصل انجلترا فى مالطة ، ولكن المؤلف استعمل اللقب القنصلى كاسم فقال : السلطان قنصل ، ويبدو أن ذلك يرجع إلى عدم انتشار التعبيرات القنصلية والدبلوماسية فى ذلك الوقت . ومن المعروف أن الفرنسيين قبضوا على القنصل الانجليزى والقنصل الروسى ونفوهما إلى روما بعد استيلائهم على جزيرة مالطة . ومن الطريف أن المؤلف استعمل هذا الإسم الوهمى للتعبير عن النشاط الدبلوماسى الانجليزى لدى السلطان العثمانى الذى قام به فى الواقع السفير الانجليزى فى استانبول السير سبنسر سميث ، وأخيه السير سيدنى سميث الذى أرسلته حكومته إلى هناك بعد مجىء الحملة إلى مصر لحث الامبراطورية العثمانية على إعلان الحرب على فرنسا .

وغلب عليها ، فعجب السلطان من ذلك وبقى بحضرته فتصل شهوراً يستغيث به ، ويسأله الاعانة على الأفرنصيص ، فأجابه بعد اللتيا والتى[١] وأذن له بالخروج عليه وقصده إلى مصر ، وجعل له مرسوماً[٢] ينهج له السبل ، فخرج فى جيش جرار وركب البحر ، ووصـــل إلى حذا دمشق ، فخرج من عكا جماعة يستفصحون خبره ومراده ، فأطلعهم على مرسوم السلطان[٣] ، فأنهوه إلى أحمد الجزار[٤] ، فاستنزله فنزل عليه وأخبره بما توجه إليه ، فاستوقفه

---

(١) تعبير عامى مازال مستعملا فى اليمن بمعنى الاخذ والرد ، ويقصد به هنا : بعد طول المفاوضات .

(٢) المقصود بهذا المرسوم هى المعاهـدة الانجليزية العثمانية التى أبرمت فى يناير ١٧٩٩ م .

(٣) توجه السير سيدنى سميث من استانبول الى كل من رودس وعكا للتنسيق مع حكاميهما خطط مواجهة الفرنسيين ، كما أن الأسطول الإنجليزى ساعد عكا بحراً أثناء حصار بونابرت لها .

(٤) يعد من الشخصيات المغامرة التى تمـكنت من الوصول الى أعلى المناصب — اعتماداً على جهوده الذاتية — نتيجة ضعف واضطراب الأوضاع فى الدولة العثمانيـة فى القرن الثامن عشر ، فقـد وصل الى حـكم ولاية عكا وطد نفوذه بها حتى أن السلطة فشلت فى زحزحته عنها عـدة مرات ، وزادت شهرته بعد صموده أمام حصار بونابرت لعـكا وفشله فى الاستيلاء عليها ، وهو من بلاد البشناق ، وقد جاء إلى مصر فى خدمة على باشا — أحد ولاتها — عند ولايته الثانية لها ، وقام بالحج — خلال هذه الولاية — مع أمير قافلة الحج المصرى حينذاك وهو صالح بك القاسمى فأكرمه ، وتوطدت العلاقة بينهما ، وعند عودته من الحج وجد مخدومه — على باشا — قد عزل وتوجه إلى استانبول حيث توفى هناك بعد قليل ، فبقى هو فى مصر ، وقلد حياة مماليكها ودخل فى خدمة أحد أمرائهم وهو عبد الله بك أحد أتباع على بك الذى عرف بالـكبير فيما بعد . وقد ذهب مع مخدومه الجديد على رأس حملة لتأديب عرب البحيرة ، ولـكن الحملة فشلت فى مهمتها وقتل عبد الله وعاد هو إلى القاهرة مع باقى أفراد الحملة . وعندئذ عينه على بك « كاشفاً » للبحيرة لينتقم لسيده من عربها ، فتمـكن هناك من التحايل على أعيان المنطقة وجمعهم لديه ثم قتلهم دفعة واحدة — وكانوا زهاء سبعين رجلا — فاشتهر منذ ذلك الحين باسم الجزار . وقد أخذ يترقى المناصب المختلفة حتى وصل إلى درجة « الصنجقية » ، ولـكنه اضطر الى =

وأخبره أن الفرنساوية قاصدة له ، وأنه مستعين به ، وواصل سببه بسببه فكانت القتلة العظمى ، والداهية الدهيـاء بعكة[1] ، وقد ذكرنا وصف خروج الفرنسيس على أحمد الجزار ، وما دار بينهم وبينه ، وكيف أوقع بهم وذكر أسماء الخارجين عليه من أمرائهم وعظمائهم وقتلتهم ، وأتينا على أخبار دخولهم الاسكندرية وما الذى أعملوه من المكر والخداع ، وفصلنا ذلك فى كتابنا « قرة العين » فلا نطول بالاعادة ، ففيه مطلوب المتطلع وزيادة : وسنثبت الكتب التى وردت من الشريف (١٨٧) غالب[2] فى هذا الحادث

= الهرب من مصر عقب نشوب الخلاف بين على بك وصالح بك القاسمى، فذهب الى استانبول ثم عاد متخفياً الى مصر ، وعاش بين عرب الهنادى بالبحيرة وتزوج منهم ، وعندما أرسل على بك حملة لمحاربتهم ، حارب معهم حتى اضطر ثانية الى الهرب الى الشام . وهناك تقلبت به الأحوال وقوى جانبه بشراء المماليك ، حتى اشتهر اسمه وذاع صيته ، فولاه حسن باشا الجزائرلى ولاية عكا عند وصوله اليها . وقد ثبت أقدامه بها ووسع ممتلكاته حتى اضطرت السلطنة الى توليته ولاية الشام ، وان ظل متخذاً عكا مقراً له . . « وبالجملة فكان من غرائب الدهر وأخباره لا يفى القلم بتسطيرها ولا يسعف الفكر بتذكارها ولو جمع بعضها جاءت مجلدات ولو لم يكن له من المناقب الا استظهاره على الفرنساوية وثباته فى محاربتهم له أكثر من شهرين لم يغفل فيها لحظة لكفاه » . وقد مات أحمد باشا الجزار فى ١٢١٩ هـ (٤ / ١٨٠٥ م) أى بعد جلاء الفرنسيين عن مصر بعدة سنوات . (الجبرتى : جـ٣ ، ص ٣٤٠—٣٤٢) .

(١) وصحتها عكا ، وكان المؤلف يكتبها أحياناً عكا وأحياناً أخرى عكة

(٢) هو الشريف غالب بن مساعد بن سعيد الحسنى المتوفى عام ١٢٣١هـ (١٨١٦م)، من أشراف مكة وتولى حكمها بعد وفاة أخيه الشريف سرور فى ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧ م) . وفى بداية حكمه ، نازعه بن أخيه عبد الله بن سرور ولكنه تغلب عليه واستقرت له الأمور مدة من الزمن . وعندما اشتد ساعد سعود بن عبد العزيز بنجد ، وهاجمت جيوشه الحجاز ، تصدى لها الشريف غالب ولكنه هزم وتقهقر الى جدة ، ثم دخل فى طاعة السيطرة السعودية وحكم مكة مرة أخرى باسمهم . وقد استمر فى منصبه بعض الوقت حتى بعد أن زحفت جيوش محمد على باشا الى الجزيرة العربية بناء على أمر السلطنة العثمانية ، إذ حول الشريف ولاءه الى محمد على . ولكن قوات الأخير قبضت عليه بعد مدة ، =

العظيم ، والخطب الجسيم ، عام ثلاث عشرة ومائتين وألف ، إذ فيه كان وصولها ، وننقل الكتاب الذى بعثته عتاة الفرنساوية إلى بونابارته تحضه على إعمال النظر الدقيق ، واستعمال الخداع بذلك الفريق ، وإنزال الضر بجماعة المسلمين ، والمكر بهم وبمن أعانهم من سائر الكافرين .

= وأرسل الى القاهرة عام ١٢٢٨ هـ ، فبقى بها شهراً ، ثم أرسل الى الآستانة ، فنفته السلطنة الى سالونيك حيث توفى بها . وهو من أشهر أشراف مكة فى القرن التاسع عشر ، عرف عنه المكر والدهاء والسياسة المرنة والقدرة على المناورة ، وقد اهتم به كثير من مؤرخى عصره مثل مؤرخنا لطف الله جحاف والجبرتى وابن غنام وابن بشر وغيرهم (الزركلى : الاعلام ، جـ ٥ ، ص ٣٠٥) .

(١) مازال لفظ اتفق مستعملا فى اليمن الى الآن بمعنى تقابل ، فيقال : لم نتفق منذ عودتك من القاهرة بمعنى لم نتقابل من قبل .

[٢]

[الصدام البحرى بين انجلترا وفرنسا بالقرب من عدن
بعد استيلاء الفرنسيين على مصر]

سنة ١٢١٢ هـ .

(١٩٢) وفى ربيع الآخر : اتفق مركب للفرنساوية ومركبان للانقليزية باب عدن[1] ، فكانت بينهم ملحمة بعد بلوغ الأخبار فى البحار بدخول الكفار ديار مصر ، وكانت الدائرة على الفرنساوى .

(١) المقصود هو مدخل ميناء عدن لأنه محاط بالجبال العالية .

[٣]
[تعاون سلطان مسقط مع الانجليز ضد الفرنسيين]

(١٩٢) وكان صاحب مسكات[١] قد شحذ همم من بالجزائر هناك على مصاولة الفرنصيص لأسباب منها أخذ جماعة من الفرنصيص داوا[٢] وكانت به[٣] أموال جمة ، وأخذ عليهم بعدها ثلاثة غرابات[٤] . وكان الافرنصيص قد (١٩٣) أخذ ثلاثة مراكب من حوزة محمد على خان صاحب الهند[٥] ، وبها جماعة من الانقليز ، ومركب للشلبي[٦] ، فما زالت المراكب تمر من بحر الهند آمنة إلا ما كانت من مراكب الفرنساوى ((فانها لا)) تمر[٧] إذ ذاك من عدن إلا على مخافة .

---

(١) وهى مسقط المعروفة على ساحل شبه جزيرة العرب الجنوبى ، وما زال أهالى المناطق اليمنية الجنوبية ينطقونها كما وردت عند المؤلف : مسكات بكسر الميم .

(٢) وردت فى النسخة (ن.م. : ص١٨٤ب) : داوان، والداو هى سفينة النقل التجارية.

(٣) وردت فى النسخة (ن . م . : ص ١٨٤ب) : بهما .

(٤) مفردها غراب ، وهى سفينة النقل الكبيرة التى تمخر اعالى البحار ، وربما ترجع هذه التسمية نسبة إلى الطائر المعروف باسم الغراب لقوته وجرأته على الارتفاع فى أجواز الفضـــاء ، وربما ترجع أيضاً إلى أن غوارب الماء تعنى أعالى موجه ، (فيروزابادى : القاموس المحيط ، حـ ٤ ، مادة : غرب) أى السفينة التى تسير فى البحار ذات الأمواج العالية .

(٥) هو أحـد القادة الهنود فى جهات البنغال ، الذى اسـتطاع أن يصل إلى حكم إحدى المقاطعات الهندية ، وأن يحول هذا الحكم الى عرش وراثى ، عن طريق الارتماء فى أحضان شركة الهند الشرقية (الانجليزية) والحصول منها على القروض الضخمة ، وذلك مقابل السماح لها بالتدخل فى شئون البلاد (البنغال) الداخلية ، ومقابل الحصول على منح وامتيازات فى هـذه المناطق . وقد ترتب على هذا كله التعاون الوثيق فى الشئون التجارية بين الطرفين ، وخاصة أن انجلترا كانت تسيطر على التجارة وعلى البحار حينذاك بصورة كبيرة .

(٦) لم يتضح لنا من هو الشلبي ، ولن كنا نرجح مؤقتاً أن هـذا اللفظ عبارة عن صفة أكثر منه اسما .

(٧) تصحيح من النسخة (ن . م . : ص ١٨٤ب) فقد وردت فى النسخة الأم : ولا . وفي هذه العبارة إشارة الي اشتداد الصراع الانجليزى الفرنسي حينذاك .

[٤]

[حروب متطوعى الحجاز مع الفرنسيين بصعيد مصر]

ودخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف :

(١٩٤ هـ) وفيها قام فى البلدة الحرام ، بوظيفة الدعاء إلى إقامة شعار سنام الاسلام ، محمد المغربى الجيلانى(١) الهاشمى لما وردت الاعلام ، بما صنعه الكفرة اللئام ، من الهجوم على ساحات مصر ، وتصدر بالحرم الشريف فالتف عليه خلائق ، واستمعوا إرشاده إلى أنهج الطرائق ، وفعل دعاه بالقلوب(٢) مافعل ، وتسامع الناس بأخباره فوردوا إليه ، وبذلوا نفوسهم وأموالهم بين يديه ، وكانت النساء تأتى فتستمع مايمليه من أحاديث الحض على الجهاد ، فيلقين إلى الحلقة فتخاتهن(٣) وعقودهن وملبوسهن ، ويقلن

---

(١) ذكره الجبرتى باسم الكيلانى أى بالكاف وليس بالجيم ، ويلاحظ أن الجبرتى ولطف الله جحاف لم يذكرا له ترجمة خاصة بل اكتفيا بتتبع أحداثه حتى استشهاده .

(٢) وردت فى النسخة (ن م : ص ١٨٦ أ) : فى القلوب .

(٣) الفتخة والفتخة خاتم يكون فى اليد أو الرجل بفص وبغير فص ، وقيل هى الخاتم أياً كان ، وقيل هى حلقة تلبس فى الأصبع كالخاتم . وكانت نساء الجاهلية يتخذنها فى عشرهن ، والجمع فتخ وفتوخ وفتخات ، وذكر فى الجمع أيضاً فتاخ . وقيل الفتخة حلقة من فضة لا فص فيها فإذا كان فيها فص فهى الخاتم ، وقيل أيضاً أنها كل خلخال لا يجرس (ابن منظور : لسان العرب ، حـ ٤ ، ص ٩) .

ذلك الذى علينا ، فاجتمعت عنده أموالا واسعة ، ووردت إليه المتطوعة من البلاد الشاسعة ، فسار بهم لمناجزة أعداء الله الفرانسة ، فكان من خبره ماقصصناه فى كتابنا « الرحلة إلى الحرمين » ، غير أنا لانخل بهذا(١) الكتاب من فائدة زائدة .

كان السيد محمد الجيلانى قد دعا العباد بالحرمين إلى فريضة الجهاد ، فمن أعانه بالحرمين محمد باصلاح الحضرمى(٢)، فإنه تصدق فى سبيل الله بخمسمائة بندق صغار مغربية ، ومائتى حربة ((من حراب الشام))(٣) ، ومائتى سيف ، وأربع مائة كيس حبوب الرز ، وألفى نعل ينتعلها فقراء المجاهدين ، ومنهم الشيخ عبد الرحمن المسيرى(٤) بمهملات(٥) جهز ثلاث سواعى(٦) يركبها المجاهدون وملأها لهم ميره ، ومنهم الشيخ أحمد فاس جهز داوين فى سبيل الله ، ومنهم الشريف غالب بن مساعد ، جهز خمس سواعى فى سبيل الله

---

(١) وردت فى النسخة (ن. م. : ص ١٨٦ أ) : لا نخلى هذا .

(٢) يبدو أنه هو وغيره من المتبرعين الذين وردت أسماءهم فى هذا النص من كبار تجار الحجاز ، إذ لم أجد لهم ترجمات فى المصادر المعاصرة .

(٣) زيادة من النسخة (ن. م : ص ١٨٦ أ) لتوضيح المعنى .

(٤) وردت فى النسخة (ن. م. : ص ١٨٦ أ) : الغزى بالغين المفتوحة .

(٥) وردت هكذا فى النسختين ، ويرجح أن المقصود بها هو : بأشياء متنوعة متفرقة، أى بمهمات وهى الأقرب الى المعنى .

(٦) مفردها ساعى ، وهى السفينة الصغيرة الخاصة بنقل البضائع بين الموانىء المتقاربة . وقيل انها ما زالت مستعملة الى الآن بهذا الإسم فى الموانىء الحجازية مع استعمال الآلات لتحريكها بدلا من الشراع .

شاحنة ، ومن أهل ينبع محمد أبو العسل(١) جهز داوا من داواته وثلاث سواعى أخرات من أهل ينبع ، فسيّر السيد محمد الجيلانى جماعة المتطوعة من جدة فى تلك الداوات فكانوا نحواً من أربعة آلاف مقاتلا ((ثم سار ناحيا نحو المدينة المنورة فمر بأهل رابغ(٢) والخليص(٣) فدعاهم فأجابوه ، وبذلوا له أموالا واسعة ، وسار إلى بدر فأنالوه وخرج منهم جماعة متطوعة ، وكان له وكلاء يجمعون))(٤) الأموال ((معه))(٥) ، ثم نزل بالصفرا(٦)

---

(١) يبدو أنه من تجار العسل الكبار ، إذ أن المنطقة الخلفية لميناء ينبع تشتهر بوفرة عسل النحل بها (يرجع الى كتاب حمد الجاسر : بلاد ينبع) .

(٢) إسم لواد يقطعة الحجاج ويقع بين مكة والمدينة ، وهو يحمل هذا الإسم الى الآن ، وهو كذلك اسم للميناء الصغير الذى يقع بين جـدة وينبع على ساحل البحر الأحمر ، وهو بذلك إسم للواد والمدينة معاً . (ياقوت الحموى : معجم البلدان : حـ ٤ . ص ٢٠٢ ، وابن بليهد . صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار . حـ ٣ ، م ١ ، ص ٩٩ — ١٠٠) .

(٣) هو اسم لواد فية قرى ونخل بين مكة والمدينة ، وكان قديماً يعرف باسم :خليص، إلا أن المتأخرين ينطقون به بالتصغير ، أى خليص وهو يقع على طريق السيارات الآن ، (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، حـ ٣ ، ص ٧١ ، ابن بليهد : صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار ، حـ ٣ ، ص ٥٤) .

(٤) العبارة كلها مستكملة من النسخة (ن . م . : ص ١٨٦ أ) فهى ناقصة فى النسخة الأصل (ن . ع .) نتيجة قص الأوراق عند التجليد ، لذ يبدو عند طرف الورقة بقايا حروف فقط لا يمكن قراءتها .

(٥) زيادة فى النسخة (ن . م . : ١٨٦ أ) .

(٦) وهى الصفراء ، اسم لجهة من جهات المدينة المنورة ، وهى زاخرة بالأودية والقرى ، تقع بين المدينة المنورة وميناءها ينبع ، كما أن مياهها تنحدر إلى ينبع ، ويحدها من الغرب جبل رضوى المعروف ، كما يطلق هذا الإسم على إحدى قرى هذه الجهة ، وقد وردت كثيراً فى كتب الرحلات لأنها تقع على طريق الحجاج القادمين من مصر والمتجهين إلى المدينة المنورة ، كما فى هذه الجهـة يكثر إنتاج عسل النحل وهى ما زالت معروفة بهذا الإسم إلى الآن . (حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص ١٩٥ — ١٩٧) .

فدرس بها(١) ودعا إلى الجهاد ، فجاءوه بأموال واسعة ، فقال له بعض العوام أنهم زيدية(٢) ، فقال قد زادهم الله ((عليكم))(٣) فضلا ، فإنى وجدتهم ((يدفعون))(٤) أموالهم فى سبيل الله وقبضها منهم . وسار إلى المدينة ، فتسلم من أهلها أموالا جزيلة ، وخرج منهم ثلاث مائة متطوعة ، فنزل بالجميع إلى ينبع ، وجاءه الخبر بأن المتطوعة من ديار مكة قد مرت مراكبهم فحمد الله ، وسار بمن معه ، وكان السابقون من مكة قد خرجوا من ريف مصر وعليهم السيد حسن الجيلانى ابن أخت السيد محمد ، والسيد طاهر أخو السيد محمد فنزلوا بقنا(٥) ، فقيل لهم أن النصارى بمدينة سمهود(٦) قريباً

---

(١) بمعنى وعظ ، ومازال هـذا التعبير مستعملا فى اليمن بمعنى الوعـظ والإرشاد ، فيقال : « الدرس والدريس فى المساجد » بمعنى الوعظ وقراءة القرآن عند وفاة أحد الأهالى .

(٢) إشارة إلى أنهم أتباع المذهب الزيدى نسبة الى الإمام زيد بن على ، ولـكن يلاحظ أننا لم نعثر فى كتابى ياقوت الحموى (ج ٥ ، ص ٣٦٧) ، وحمد الجاسر ما يثبت انتشار المذهب الزيدى بين أهالى الصفراء .

(٣) زيادة من النسخة (ن. م. . ص ١٨٦ أ) لتوضيح المعنى .

(٤) وردت فى النسخة (ن. م. : ص ١٨٦ أ) : ينفقون .

(٥) اسم لمدينة كبيرة من مدن جنوب الصعيد ، وهى كذلك اسم للمحافظة التى ام فيها هذه المدينة . وهى مدينة قديمة يرجع تاريخها الى العهد الفرعونى ، وكانت تسمى حينذاك شابت Chabt وفى العهد الرومانى عرفت باسم Maximianopolis نسبة الى الامبراطور مكسيميليان المعروف وحور هـذا الإسم فيما بعد الى Kainlpolis وتحول هـذا الإسم فى العصر القبطى الى قونى Kouni وبعد الفتح الإسلامى تحول الى قونة ، لذلك تذكر باسم : قناة ، أما سكانها فيطلقون عليها اسم : قنا وفى العهد المملوكى كثر بها الربط الصوفية (ومفردها رباط) التى يتجمعون بها للتعبد ، ومن أشهر رجال الصوفية « سيدى عبد الرحيم القنائى » الذى اشتهر باسم « سيدى القناوى » حتى العصر الحالى . ومدينة قنا تقع على الضفة الشرقية للنيل ، وظلت طوال تاريخها تتأرجح بين اعتبارها عاصمة لإقليم صغير تلحق بإقليم آخر هو إقليم قوص أو جرجا ، وبين اعتبارها عاصمة لإقليم صغير مستقل ، =

منكم ، فخرجوا نحو النصارى فاقتتلوا فكانت الدائرة ذلك اليوم على المسلمين ، ففروا إلى قنا ، فحصرتهم النصارى ((بها))(١) فخرجوا عنها إلى بئر عنبر(٢) من أعمال الريف ، وسار بعضهم إلى اللقيطة(٣) وعادت النصارى إلى سمهود ، وورد على المسلمين الخبر بنزول الجيلانى من البحر ، فالتقاه ((جماعة))(٤) منهم فطالبهم جميعاً وسار بهم حتى إذا حاذى مدينة أبنود(٥) ، كتب إلى النصارى كتاباً يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله ، فإن أطاعوا وإلا فهو مقاتل لهم ، فأجابوه إلى القتال ، وانثالت جموعهم براً وبحراً ، فخرجت إلى

= وذلك حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر حيث بدأت تأخذ شكلا مستقلا واضحاً . ومنذ عام ١٩٤٠ م ، استقر الأمر باعتبار مدينة قنا عاصمة لمديرية أو محافظة تعرف باسمها . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الثانى ، ح ٤ ، ص ١٧٨ — ١٧٩) .

= (٦) اسم لقرية مصرية تقع جنوب الصعيد بالقرب من قوص وقنا ، وهى تحمل اسم فرعونى قديم ينقسم الى شقين بمعنى : اتحاد العرش ، واختصرت فى العهد القبطى إلى سمهود Semhout وظلت فى العهد العربى تحمل هذا الإسم إلى الآن . وهى تقع على شاطىء النيل الغربى . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الثانى ، ح ٤ ، ص ١٩٧) .

(١) زيادة من النسخة (ن. م. : ١٨٦ ب) .

(٢) ، (٣) قريتين صغيرتين بالقرب من مدينة قنا .

(٤) جاءت فى النسخة الأم (ن. ع) : جماعات ، ولكن ماجاء فى النسخة الثانية هو الأفضل ، لأنه يتفق من سياق الجملة .

(٥) مدينة متوسطة فى جنوب الصعيد تقع بالقرب من مدينة قفط المعروفة ، وهى تتبع قوص إدارياً . وهى مدينة قديمة ترجع إلى العهد الفرعونى ، وكانت تعرف باسم : بنوت ثم وردت فى معجم البلدان لياقوت الحموى باسم : أبنود . وهى تشتهر بكثرة بساتينها ونخيلها ، وكثرة معاصر قصب السكر (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الثانى ، ح ٤ ، ص ١٧٤) .

((مرسى))(١) أبنود اثنى عشر مركباً ، فقصدها جماعة من المسلمين فانتهبوها ، وغرقوا كثيراً من أهلها وملكوها ، ووجدوا بأحدها ثمانين ألف ريال . ووصلت بعد ثلاث ليال جموع لا تعد من النصارى فتوجهت فى البر على أبنود ، فقام المسلمون وجابهوهم(٢) ، فاقتتلوا من آذان الظهر إلى أن تضيفت (كذا)(٣) الشمس للغروب ، وكانت الدائرة بعد على المسلمين فإنهم بعد ذلك تفرقوا فرقاً ، وذهب كل ((منهم))(٤) قبل وجهة بعد أن قتل من الطائفتين خلق لا تحصى . وعاد السيد الجيلانى فى أربعين نفراً من أهل اليمن(٥) ، وطالع قلعة أبنود فتبعته النصارى بجمع لا يحصى ، فأحرقوا مدينة أبنود ، وتوجهوا على القلعة فأحرقوا بابها ، غير أن السيد ومن فى حضرته أحربوا حرباً حاراً ذلك اليوم ، وما زالوا كذلك ثلاثة أيام ((حتى نفد))(٦) ما بها من الماء والزاد ، فخرج بمن معه ليلا وسار بهم إلى بئر عنبر ، فلقى بها جماعة من المسلمين ، فسألهم عن إخوانهم ، فأخبروه

---

(١) جاءت فى النسخة الأم (ن . ع .) : قرب ، ولكن فى النسخة (ن. م. : ص ١٨٦ ب) وردت ، مرسا (وصحتها : مرسى) وهى الأفضل لاتفاقها مع الحديث عن السفن ، وهى هكذا بمعنى : الميناء .

(٢) وردت هكذا فى النسخة الأم (ن . ع .) بدون تنقيط ، وفى النسخة (ن . م . : ص ١٨٦ ب) جاءت : وجاهم وربما المقصود هو : وجاءهم ولكن ما ذكر هنا هو الأفضل .

(٣) هكذا وردت فى النسختين ، وهى بمعنى : مالت .

(٤) زيادة من النسخة (ن. م. : ص ١٨٦ب) .

(٥) يرجح أن المقصود بأهل اليمن هم أهالى يمن أو جنوب الحجاز ، إذ لم يرد بالنص ما يدل على وجود متطوعين يمنيين بين صفوف جيش السيد الجيلانى .

(٦) وردت فى النسخة الأصلية (ن. ع.) فنفد .

بأشقتهم، فسار عنهم(١) تلك الليلة إلى محله يقال لها حجازة(٢) فى نفر خفيف وأبقى بيتر عنبر السيد حسن الجيلانى ، ((وكان بها))(٣) من الصناجق(٤) حسن بيه الجداوى(٥) الخارج أيام أبى الذهب إلى الحرمين ، وكذلك عثمان

---

(١) وردت فى النسخة (ن. م. : ١٨٦ب) : بهم ، ولكن (عنهم) تتفق مع سياق الحديث .

(٢) لإحدى القرى التابعة لمركز قوص ، وقد قسمت فترة من الزمن إلى : حجازة بحرى وحجازة قبلى ، ولكنهما ضمتا الآن . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، القسم الثانى ، حـ٤ ، ص ١٩١) .

(٣) زيادة من النسخة (ن. م. : ص ١٨٦ب) .

(٤) ومفردها صنجق ، وتكتب أيضاً بالسين أى سنجق وسناجق ، وسنجق فى الأصل بمعنى العلم والراية ، ثم استعملت للدلالة على الأقسام الإدارية الكبيرة للبلاد مثل المحافظة والمديرية واللواء ، وأصبحت لقباً لمن يتولى إدارة هذه الأقسام ، كذلك مايعادل هذه الوظيفة الهامة من الوظائف الأخرى الكبيرة مثل مدير الجمارك ، أو المسئولين عن الثغور أو غير ذلك ، ولقب السنجق أيضاً يعادل لقب أمير وبيك وهى ألقاب عسكرية فى الأصل ، ورتبة السنجق هى السنجقية والصنجقية .

(٥) هو الأمير حسن بيك الجداوى مملوك على بيك الكبير ، مات بغزة بالطاعون فى عام ١٥١٥ هـ (١٧٩٩ / ١٨٠٠ م) وقد عرف بالشجاعة والإقدام ، ولما انفرد على بيك الكبير بحكم مصر ، ولى حسن بيك حكم جدة مدة من الزمن ، وأظهر فيها كثيراً من أعمال البطولة ، ولذلك اشتهر منذ ذلك الوقت باسم الجداوى . وقد شارك مثل غيره فى المنازعات المملوكية العديدة التى عرف بها العهد العثمانى — المملوكى ، حتى انتهى به الأمر إلى أن عينه إبراهيم بك والياً لإمارة جدة مرة أخرى وذلك لإبعاده عن مصر ، وبعد إقلاع سفينته من السويس أمر ربان السفينة أن يذهب به إلى القصير وهدده بالقتل ، وعندما وصل إلى هناك ، توجه إلى إسنا بالصعيد واستقر بها فالتف حوله مماليكه ، وظل هناك أكثر من عشر سنوات : وقد عاد إلى القاهرة وعاش بها مدة عندما انتصر حزبه وسيطر إسماعيل بك على مقاليد الحكم فى القاهرة . وبعد قليل اضطر ثانية إلى مغادرتها والاستقرار فى الصعيد حتى جاء الفرنسيون إلى مصر ، أى بعد حوالى سبع سنوات من استقراره هناك وهنا شارك غيره من المماليك فى محاربة الفرنسيين فى مختلف جهات مصر ، حتى انتهى به الأمر إلى أن دخل القاهرة ثانية عقب وصول الصدر الأعظم إليها ، ومحاربته للفرنسيين . وفى هذه الفترة ، شهد بشجاعته كل من المصريين والعثمانيين والفرنسيين . (الجبرتى : عجائب الآثار ، حـ ٣ ، ص ١٨٠ — ١٨١) .

بيه حسن[١] صنجق آخر ، قد التف جمهما العظيم مع متطوعة المسلمين ، وراح الجيلانى من هنالك وقد أدرك[٢] عله ، فاستقر بحجازة ثلاثة أيام وأدركه الأجل . وجاءت الرسائل إلى من بأبنود وبئر عنبر مخبرة بوفاته رحمه الله ، وطالبة ((من المسلمين))[٣] الوصول للاطلاع على الوصية ، فانثال إلى حجازة جمع من المسلمين للنظر فيما أوصى به ، فوجدوه قد أوصاهم بتقوى الله ، والجهاد فى سبيل الله ، والصبر على ملاقاة الأعداء ، غير أنه تبدد النظام ، وكثر الكلام ، وأجمع رأى المسلمين على النزول إلى ديار النصارى ، فساروا إلى قبائل هلة[٤] وجهينة من أهل مصر ، ((فالتقوا))[٥] مع النصارى ،

---

(١) من أتباع حسن بك الجداوى سالف الذكر ، وقد صاحبه فى كل تحركاته حتى خروج الفرنسيين من مصر ، غير أنه طال به العمر حتى أنه عاصر بداية عصر محمد على باشا . وقد اشترك عثمان بك فى المصادمات التى وقعت بين المماليك وبين محمد على حتى انتصر عليهم الأخير ، وتمكن من تصفيتهم ، ولم يحدد الجبرتى تاريخ وفاته ، ولم يكتب له ترجمة منفصلة ؛ ذلك لأنه مات بعيداً عنه مطارداً ، إذ كان عثمان بك من بين المماليك الذين طاردهم محمد على فى الصعيد حتى أخرجهم منه إلى السودان ، فأقاموا هناك فى « دنقلة » فى حالة يرثى لها يقتاتون ما يزرعونه من الدخن كما ذكر الجبرتى : وقد طال عليهم الأمد ومات أكثرهم ومعظم رؤسائهم مثل عثمان بك حسن وسليم أغا وأحمد أغا . وغيرهم ممن لا علم لنا بخبره لبعد المسافة حتى على أهل منازلهم ، وبقى ممن لم يمت منهم إبراهيم بك الكبير . (حاكم مصر قبيل الحملة) » . وقد ذكر الجبرتى أخبار بقايا المماليك فى السودان بمناسبة وصول رسول من قبلهم إلى محمد على باشا يطلب الأمان لهم ، والسماح لهم بالعودة الى مصر للاقامة باحدى الجهات التى يحددها محمد على باشا لهم وبالشروط التى يرتضيها . (الجبرتى : عجائب الآثار ، ﺣ ٤ ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧) .

(٢) وردت هكذا فى النسختين ، وصحتها : أدركته .

(٣) وردت فى النسخة الأم (ن. ع.) : للمسلمين .

(٤) ورد ضبطها فى النسخة (ن. م. : ١٨٧ أ) بالكلمات هكذا : بهاء مكسورة فلام مشددة مفتوحة فتاء تأنيث ، وقبائل هلة وجهينة من القبائل العربية المعروفة التى استقرت بصعيد مصر .

(٥) وردت فى النسخة الأم (ن. ع.) : فالتقوى ، ولكن ما جاء فى النسخة (ن. م. : ص ١٨٧ أ) هو الأصح .

فاقتتلوا قتالا شديداً فنى فيه خلق . ثم ساروا بعد ذلك فنزل المسلمون على براري جرجة[١] فتلقاهم هنالك الشيخ عبد المنعم الهواري[٢] وأخبرهم بأن النصارى بالقرب من محله فنزل المسلمون عليه فلم يشعروا إلا بطلائع النصارى قد أقبلت عليهم ، فخرجوا فكانت ملحمة عظمى فنى بها من الفريقين خلق ، واحتز عبد المنعم رؤوساً من قتلى النصارى . وانفصم بها عقد نظام المتطوعة ، وذهب الناس إرسالا لاأمير لهم ، منهم الذاهب إلى مصر ، والذاهب إلى الشام ، والعائد إلى الحرمين .

وسنقص عليك بعض ما كان عام أربع عشرة ، وسنذكر إن شاء الله تعالى ما كان من مصالحة الشريف ((غالب))[٣] لسلطان النصارى بونابارته وتفصيله .

---

(١) جاءت مضبوطة بالكلمات فى النسخة (ن . م : س ١٨٧ أ) كالآتى :

جيم مكسورة مهملة وراء ساكن فجم مفتوحة فتاء تأنيث ، ولكن الشائع والأصح أن تنتهى بألف . وهى من أشهر مدن الصعيد وأقدمها ، إذ كانت تسمى قديماً : دجرجا . وكانت باستمرار عاصمة لإقليم واسم حولها منذ العهد العثمانى وحتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، وأصبحت كشوفية مستقلة لعبت دوراً هاماً فى تاريخ الصعيد ، وخاصة بعد أن قويت شوكة المماليك فى العهد العثمانى المتأخر . وهى الآن مقر لجزء من المحافظة — أى مركز — بعد أن انتقلت عاصمة المحافظة إلى مدينة سوهاج لتوسطها . (محمد رمزى — القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الثانى ، ج ١ ، ص ١١٣) .

(٢) أحد رؤساء قبائل هوارة التى ارتفع شأنها فى إقليم جرجا قبل مجىء الحملة الفرنسية على مصر .

(٣) ورد اسم الشريف حمود فى النسختين ، ثم شطب فى النسخة الثانية وكتب بدلا منه : الشريف غالب ، وهو الأصح فهو الذى عاصر أحداث الحملة الفرنسية على مصر .

[٥]

[ترجمة حياة أحد أمراء المجاهدين الحجازيين]

(٢١١) وفي شوالها « سنة ١٢١٣هـ. »(١) « توفي »(٢) محمد بن عابدين بن محمد حياة السندي(٣) كان أميراً على المتطوعة في جهاد الفرانسة بمصر ، فعاد وقد قضى ما عليه من فريضة الجهاد ، وقضى نحبه بأشرف بلدة وأعز ناد ، وكان أسرع مسعر حرباً وقدح زناد ، وفوّضه في إمرته تلك محمد المغربي الهاشمي الجيلاني المقدم الذكر(٤) .

---

(١) ، (٢) إضافات لتوضيح المعنى ، فالمؤلف لا يحرص على ذكر لفظ (توفي) عندما يبدأ في ذكر التراجم في نهاية كل سنة ، بل يكتفي بأن يقول : وفيها ، ثم يذكر اسم المترجم له مباشرة .

(٣) يبدو من اسمه أنه من أصل هندي ، ويلاحظ أن المؤلف كتب اسم : حياة على الطريقة القديمة أي : حيوة ، مثلما كان لفظ الصلاة يكتب الصلوة .

(٤) يبدو أن المذكور كان شاعراً أديباً ، فباقي الترجمة عبارة عن نماذج من أشعاره . وقد ذكر المؤلف أنه لم يعثر للمذكور ترجمة ما سوى في مخطوطة عبد الله بن عيسى محمد الكوكباني (توفي عام ١٢٢٤ هـ) وهي بعنوان : « الحدائق المطلعة من زهور أبناء العصر شقائق (ذكر عبد الله الحبشي هذه المخطوطة في كتابه : مراجع تاريخ اليمن ، ص ١٢٣) .

[٦]

[خطاب الشريف غالب بن مساعد إلى الإمام المنصور على بأخبار الحملة وبالاستعداد لحماية سواحله]

سنة ١٢١٣ هـ

وفى شهر رجب من هذا العام[١] ، وصل إلى الإمام[٢] من الشريف غالب بن مساعد كتاب مخبر بثورة الفتنة العظمى ، ووثبة الطائفة الشقية

(١) يوافق ديسمبر ١٧٩٨ / يناير ١٧٩٩ .

(٢) هو الإمام المنصور على الذى عاصر أحداث الحملة الفرنسية على مصر ، والذى وضع له مؤرخنا اليمنى لطف الله جحاف ، السيرة المعروفة بعنوان « درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور على ورجال دولته الميامين » ، التى استخرجنا منها هذه النصوص . وهو الإمام المنصور على ابن الإمام المهدى العباس ابن الإمام المنصور الحسين ابن الإمام المتوكل القاسم بن الحسين ابن الإمام المهدى أحمد ابن الحسين ابن الإمام القاسم بن محمد مؤسس الدولة القاسمية فى اليمن . ولد بصنعاء فى عام ١١٥١ هـ (٣٨ / ١٧٣٩ م) ونشأ بها وأخذ العلم عن علمائها ، ثم فوضه والده لحكم صنعاء وقيادة الجند مدة طويلة حتى بويع بالإمامة بعد وفاة والده فى عام ١١٨٩ هـ (٧٥ / ١٧٧٦ م) . وقد طال حكمه حتى وصل خمس وثلاثين عاماً ، أى حتى عام ١٢٢٤ هـ (٩ / ١٨١٠ م) وقيل عنه : « آخر الخلفاء الأجواد ، وخاتم الملوك الذين قابلهم الدهر باليمن والإسعاد ، كريم الكف ، كثير المن ، أيامه غرة فى جبين الزمن ، كانت خلافته فى آل الإمام القاسم ، كخلافة الرشيد فى الزمن القادم » . ورغم ذلك فقد بدأ فى عهده ضعف حكم الأسرة القاسمية وتفتت اليمن ، فقد خرجت تهامة من تحت حكم صنعاء ، كذلك تعددت الثورات فى المناطق الجبلية ضد حكم الإمام . وفى أواخر أيامه خرج عليه ابنه نتيجة سيطرة وزراء أبيه على مقاليد الأمور ، وانتشار الفساد حينذاك ، فقبض على مظاهر السلطة جميعها ، وعزل وزراء أبيه ، وأن أبقى عليه فى منصبه حتى توفى بعد ذلك بقليل . وقد ترجم له الكثير ممن اهتموا بتراجم الأئمة ، وممن نشرت كتبهم ، مثل : الشوكانى وزبارة والواسعى وغيرهم ، ولكن أهم هذه التراجم وأوسعها هى سيرته التى وضعها لطف الله جحاف (زبارة : نيل الوطر ، حـ ٢ ، ص ١٤٠ — ١٤٢ ، الواسعى . تاريخ اليمن ، ص ٥٩ — ٦١) .

الصماء[١] ، طائفة الفرانسة الأفرنجية ، على الإسكندرية ، وبلوغها بالخداع والمماكرة ، إلى ديار مصر القاهرة ، وأرسل باطنه فرمان سلطان الاسلام سليم بن مصطفى خان .

قال الشريف : « الحمد لله الذى كل يوم هو فى شأن ، والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان ، وعلى آله الطاهرين ، وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين ، ثم نهدى مزيد سلام نشأ من خالص الوداد ، وأعرب عن صدق المحبة والاتحاد ، مع تحيات طاب نشرها من المآثر العظام ، وبيت الله وزمزم والمقام ، إلى الحضرة الباهرة المنصورية ، والفتوة الزاهرة الهاشمية ، والسدة العلية العلوية ، ناصر[٢] الخلافة اليمنية ، وواسطة نظام السادة الحسنية ، الجناب العالى الكريم ، والمآب الغالى الوسيم ، أخينا الأكرم ، وعالى الهمم ، الإمام بن الامام بن الإمام[٣] ، المنصور ، وفقه الله لاصلاح الجمهور ، ولازالت العناية الربانية له ملاحظة ، والكلاءة الصمدانية له حافظة ، آمين بجاه جده سيد المرسلين .

وبعد إهداء شريف السلام ، وإسداء واجب التحية والاكرام ، فالسؤال عن حالكم كثير ، لموجب مالكم عندنا من جميل الود الوفير ، فإن سألتم عنا فنحمده سبحانه على جزيل فضله ، وعظيم امتنانه : طيبين بخير وعافية ،

---

(١) جاءت هذه العبارة فى النسخة (ن. م. : ص ١٨٧ أ) كالآتى :

والوثبة الصماء من الطائفة الشقيه .

(٢) وردت فى النسخة (ن.م. : ١٨٧ أ) : ساحة .

(٣) تعمد الشريف ذكر هذه الألقاب ، وتكرار لفظ الإمام للمزيد من التفخيم ، وأن الامام المنصور على سليل أسرة ظهر فيها أكثر من امام ، ويتأكد هذا إذا رجعنا إلى ترجمة حياة الامام المنصور على ، إذ يرجع نسبه إلى الامام القاسم بن محمد مؤسس الأسرة القاسمية فى اليمن .

ونعمة من المولى الكريم وافية . والذى نبديه إلى مسامعكم العلية ، وأفهامكم الذكية ، من الأحوال الحادثة فى الوجود ، وجريان أحكام الملك المعبود لموجب اجتناح أهل الاسلام ، إلى الترفهات عن مهج المهام ، وترك حزم الأمور ، وغفلتهم عن حفظ الثغور ، حتى صار ماصار ، من شر ذمة أهل البغى والانكار ، من التهجم على بلاد اسكندرية مصر القاهرة ، بجنود من البحر على سفائن متواترة ، وهم طائفة من جمهور الفرانسة ، والملة الباغية ، التى بفضل الله أعلامهم ناكسة ، لمشاهدتهم فى أحوال المسلمين ، ترك ثغورهم عن التحصين ، فهجموا على تلك البلاد ، فلم يجدوا لجامحهم مدافع ولا حصن راد(١) ، فأفسدوا كافة من بجوارها من العربان بأنواع السياسة الموهمة بأنهم من طارفة السلطان ، وأبرزوا للبوادى كتبا مزورة ، بألفاظ عربية بتعظيم الله ورسوله مسطرة(٢) ، حتى انقادوا لهم بالطاعة ، ظناً بأنهم من جنود

---

(١) إشارة إلى ضعف وفساد حكم المماليك فى مصر ، وعدم اهتمامهم بتحصين الثغور وخاصة ميناء الاسكندرية .

(٢) إشارة الى منشور بونابرت الأول الى المصريين الذى وزعه فور نزوله الى الاسكندرية واحتلالها ، وكان بونابرت قد أعد هذا المنشور بمهارة فائقة لتقريب المصريين إليه وكسب محبتهم ، فأبدى به احترامه وحبه للاسلام والمسلمين ، وأنه ما جاء إلا للقضاء على المماليك الظلمة ، وأنه « محباً مخلصاً للسلطان العثمانى » . وقد شحن بونابرت هذا المنشور بالطابع الدينى ، فبدأه بالبسملة . « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه » . ثم هاجم المماليك وظلمهم ، وأن الله حكم على دولتهم بالزوال انتقاماً منهم ، وفى نفس الوقت دافع عن نفسه ، فقال : « قد قيل لكم أننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم » . كذلك استعمل بونابرت فى هذا المنشور أسلوب الوعد والوعيد ، فيلوح أحياناً بإتاحة الفرصة أمام المصريين للمشاركة فى حكم بلادهم ، وأحياناً أخرى يهدد كل من يتعاون مع المماليك باستعمال العنف البالغ ضدهم . وقد أنهى منشوره بعبارة إنشائية يؤكد فيها ما ذكره من قبل ، وهو أنه حليف =

الدولة المطاعة ، وليس يخفى عليكم حال البوادى الطغام ، الذين لا يعقلون إن هم إلا كالأنعام ، فسلكوا بهم الطريق ، وصاروا للمشركين أعظم مساعد وأعز رفيق ، فجرى (١٩٥) قدر ربنا سبحانه ، باستدراج جند الشيطان أرباب الخيانة ، بتملكهم للقاهرة ، ودخولهم إلى مصر بحكمته الباهرة ، فلا راد لقضاه ، ولا محيص عما ارتضاه ، فهو الملك المختار وله المشيئة فيما يختار ، فحينئذ بلغ الخبر حضرة سلطان الاسلام ، أدحض الله بصوارم سطوته جنود اللئام ، فجهز عليهم من أبطال الأجناد ، ما يعجز عن حصرها جميع الأعداد ، وسير عليهم من جنود الاسلام ووزرائه العظام ، وجعل مقدمهم الوزير الشهير الجزار أحمد باشا ، بلغه الله من الخير ماشاء ، فاجتمعت عليه طوائف العربان ، وتحشدت تحت رايته كافة أهل الايمان(١) ، وهرع إلى جهادهم المسلمون من كل مكان ، حتى أقطارنا الحرمية ظهرت منها للجهاد سبعة آلاف ، يردون فى طاعة الله موارد الموت والاتلاف(٢) ، ونرجو الله العظيم ، من فضله العميم ، أن يؤيد بالنصر أجناد الموحدين ، ويبدد بالقهر شمل الكفرة الملحدين . والحمد لله قد وردت إلينا الأخبار ، بتضايق حال المشركين من الحصار ، لتزاحف جنود أهل الاسلام ، وإحاطتهم بجميع المنافذ المصرية

= السلطان عدو لأعدائه فقال : « والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال : أدام الله اجلال السلطان العثمانى ، أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى ، لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية » . (الجبرتى : عجائب الآثار : ح ٣ ، ص ٤ — ٥) .

(١) من المعروف أن أحمد باشا الجزار وابراهيم بك — الذى اشترك مع مراد بك فى حكم مصر قبيل مجىء الحملة الفرنسية الى مصر والذى هرب الى الشام عند هزيمة المماليك أمام الفرنسيين — قد قادا التجمعات العثمانية التى زحفت الى الحدود المصرية ، وكانت سبباً رئيسياً من أسباب حملة بونابرت الى الشام .

(٢) اشارة الى المجاهدين الحجازيين السابق ذكرهم فى النص رقم : ٤ .

والشام ، فانتظم أمر التجهيز ، وانتدب لنصر الدين كل ذليل وعزيز ، ﴿ ولينصُرنّ اللهُ من ينصُرُه إن اللهَ لقوىٌّ عزيزٌ ﴾(١) .

وفى هذا الأوان ، ورد إلينا هذا الفرمان ، الصادر إليكم منه صورتان ، المعلن بدواعى الفلاح ، والمحرض لكافة المسلمين على مايرجى منه النجاح ، من استعداد القوة للمصادمة والكفاح ، كما هو متحتم على أهل الاسلام ، خصوصاً فى مثل هذه الأيام ، ومن أعظم الشيم والمروءة امتثال قوله تعالى: ﴿وأعِدوا لهم مااستطعتم من قُوة ﴾(٢) فبذل غاية المجهود ، فى محافظة الثغور وتحصين الحدود ، والمرابطة فى بلدان السواحل ، والذب عن الأديان بسهم المرامى وبيض الصواقل أمر محتوم على كافة الاسلام وسائر القبائل ، فواصلكم صورة الأمر الشريف والخطاب المنيف(٣) ، وما المقصد من إرساله إلا تنبيهكم لحفظ البلاد ، والتحذير من أرباب الكفر والعناد ، كما هو مصرح فى الفرمان السلطانى من ذكر مكائد الكفرة فى جميع المعانى . ولايعزب عن فهمكم الثاقب ، أن ملوك الروم أمس بما تبنى الكفرة أمورهم من المعاطب ، فحثوا على المرابطة جميع المسلمين ، وقووا ثغور بلدانكم بالتحصين الرصين من البنيان ، وشيدوا بروج المناتق(٤) بذوى البأس من الفتيان ، فإن بحر الهند تجرى فيه سفائنهم ، وقد ظهرت فيه بأخذ الموسم(٥) ضرائرهم(٦) ،

---

(١) الآية ٤٠ مدنية من سورة الحج رقم ٢٢ .

(٢) الآية ٦٠ مدنية من سورة الأنفال رقم ٩ .

(٣) وهو النص التالى .

(٤) المناتق بمعنى النواحى والمناطق المجاورة ، اذ « وبنى داره نتاق دار غيره أى بحياله » . (فيروزابادى : القاموس المحيط ، حـ ٣ مادة نتق) .

(٥) المقصود هنا هو موسم التجارة ، فالسفن حينذاك كانت تعتمد على مواسم الرياح لأنها كانت جميعها سفناً شراعية ، و « أخذ الموسم » يعنى افساده نتيجة التعرض للسفن التجارية فى عرض البحار واستعمال لفظ « الموسم » بهذا المعنى كان منتشراً فى المخطوطات العربية القديمة .

(٦) ومفردها ضررهم ، وجمعها المؤلف هكذا لالتزام السجع .

فيجب من عزيز جنابكم كمال التحرى لدفع مفاسدهم ، والاستعانة بالله تعالى فى إدحاض مكائدهم ، ومن أكبر اللوازم نشر هذه الفرمانين[1] فى كافة أقطار أوامركم ، وأقصى ما يعادد بلدانكم ومحاكمكم .

هذا ما عن لنا به الأخبار ، لا زلتم فى (١٩٦) كلاءة الملك الستار ، وإن شاء الله عن قريب نفيدكم بمسرة نصر الإسلام .

والمرجو من جنابكم ، عدم إخراجنا من الضمير المنير بأسرار صحة أخباركم ومسوق آثاركم ، ولا سيما تفيدوا بما جد وحدث ، وبلغكم من الإسلام والأخبار ، ودمتم سالمين ، وبعين عناية الله ملحوظين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) هكذا وردت فى النسختين مع الخطا فى اسم الاشارة ومفردها فرمان ، والمقصود هنا هو خطاب السلطان العثمانى الى الشريف (النص : ٧) ، وترجمة تقرير حكومة فرنسا الى بونابرت (النص : ٨) .

[٧]

[الفرمان السلطانى إلى الشريف غالب والمرسل صورته إلى الإمام]

فهذا كتاب غالب ، وهذه صورة ما نقله الشريف من الفرمان السلطانى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ، لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ، وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾(١) وبعد فهذا مرسومنا المبجل الشريف ، وخطابنا المعظم المنيف ، لا زال نافذاً بعون الله تعالى فى سائر الأرجاء والأقطار ، ما دام الفلك الدوار ، صدرناه على نظم فرائد التحية والتسليم ، منطوياً على قلائد التبجيل والتكريم ، محتوياً مبنياً عن أحكام قواعد صيانة الدين ، ومؤيداً لمعاقد حماية سنن سيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، صدرناه إلى عالى جناب الأمير الأمجد ، المبجل الأجل الأوحد ، المقتفى آثار أسلافه الأشراف ، من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف ، وأجداده السعيدى السير الجميل الأوصاف ، فرع الشجرة الزكية النبوية ، طراز العصابة العلوية المصطفوية ، زبدة آل الرسول ، غرة بنى الزهراء البتول ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الماجد ، حالا(٢) شريف مكة المشرفة الشريف غالب بن مساعد ، لا زالت العناية الربانية له ملاحظة ، والكلاءة الصمدانية عليه حافظة ، وإلى قدوة العلماء ، وعمدة الفضلاء نائب مكة المكرمة ، وكافة السادات الأشراف ، الأجلاء الميامين ،

---

(١) الآيات ١ — ٣ مدنية من سورة الفتح رقم ٤٨ .

(٢) وردت هكذا فى النسختين ، والمقصود بها حاليا ، أى القائم بالحكم .

ومفاتى[1] المذاهب الأربعة والعلماء والأئمة المحترمين ، ووجوه كافة المسلمين، من ساكن بلد الله الأمين ، من حاضر وباد ، وفقهم الله إلى سبيل الرشاد .

يحوطون علما أن طائفة كفار الفرانسة ، جعل الله ديارهم دراسة ، وأعلامهم ناكسة ، قد نقضوا العهود[2] ، وخانوا مواثيق المعبود ، وخرجوا من أطوار الحدود وهجموا على بلدان مصر وسكانها ، على حين غفلة من أهلها ، فملكوا البلاد ، وأفشوا الكفر والفساد ، وخاضوا بحار الضلال والطغيان ، وتحشروا تحت راية الشيطان وتمكن البغى فى أحشائهم ، وأن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ، لا حاكم يودعهم ، ولا دين واعتقاد يجمعهم ، يعدون النهبة غنيمة ، والنميمة أكبر شيمة (١٩٧) فقد اتفقت آراؤهم ، وارتبطت أشوارهم[3] على الهجوم على سائر بلدان المسلمين ، وأقطار عباد الله الموحدين ، بأن أهل الإسلام قويين[4] ، ولهم مزيد الصلابة فى الدين ، فإذا وصلنا[5] أقطارهم ، وحللنا بديارهم ، فالضعيف منهم نباشره بالحرب والضرب ، والقتل والنهب ، والقوى منهم تنصب له شرائك المكر والحيل حتى تطمئن خواطرهم وتأمن ضمائرهم ، إلى أن يقعوا فى أشراكنا ونعمل فيهم ماشئنا من مقاصدنا ونلقى بين سائر المسلمين المكائد الخفية بالفساد، لإيقاع العداوة المباينة للاتحاد ، فى أحوالهم وأديانهم ، ولم يعلموا لعنهم الله أن الإسلام مغروس فى قلوبنا ، والإيمان ممزوج بلحمنا ودمنا ، أكفر بعد

---

(١) مفردها : مفتى ، وتجمع مفتون .

(٢) اشارة إلى العلاقة الودية التقليدية بين السلطنة العثمانية وبين فرنسا ، إذ كانت فرنسا أول الدول الأوربية التى تعقد معها السلطنة العثمانية معاهدة صداقة ، وذلك عندما عقد السلطان سليمان القانونى معاهدة مع فرانسوا الأول فى عام ١٥٣٥ م .

(٣) وردت هكذا فى النسختين ، بمعنى : ما تشاوروا عليه .

(٤) أى أقوياء ، وذكرت هكذا لالتزام السجع .

(٥) ذكرت فى النسختين : أوصلنا ، فصححناها .

إيمان ؟ أضلال بعد هدى ؟ كلا ورب الأرض والسماء ﴿ رَبَّنا لاتُزِغ قلوبَنا بعد إذْ هدَيْتَنا ﴾(١) . خصوصاً فى طوائف العرب لنبلغ فيهم أقصى مرام وأعز مطلب ، ونبذل الجهد فى تخريج الرعاية من الإسلام ، عن طاعة من ولى عليهم من الأحكام ، حتى تكون لنا الصولة العظمى ، ويصيرون الجميع لنا مغنما ، فينقطع بذلك سلك نظامهم ، وينفصم عقد انتظامهم ، فنملك حينئذ رقابهم وأموالهم ، فإن العرب أسرع مايستولى(٢) على ديارهم ، انفرقهم فى أوديتهم من أقطارهم ، وغفلتهم عن حزم أحوالهم ، فإن أعظم مايشتت(٣) جموع الإسلام ويفل حد سنانهم عن الانتظام ، هدم قبلتهم ، وحرق مساجدهم ، وإذا ظفرنا بأقطارهم ، وهدمت كعبتهم ، ومسجد نبيهم ، وبيت مقدس لهم ، انقطع أملهم ، وتفرق شملهم ، وملكنا ديارهم ، فإن الأمور لايدركها إلا اتفاق الجمهور ، فنقتل جميع رجالهم ، ومن يعقل من صبيانهم ، فحينئذ تقتسم ديارهم وأموالهم وأملاكهم ويحوّل بقية الناس إلى أصولنا وقواعدنا ولساننا وديننا ، فيمتحى الإسلام وقواعده وشرائعه ، وتندرس رسومه وآثاره من وجه الأرض من شرقها وغربها ، وجنوبها وشمالها وعربها وعجمها . فهذا ما اتفق رأى الفرنسيس اللعين ، من سوء المقاصد فى المسلمين جعل الله دائرة السوء عليهم ، فلايستطيعون صرفاً ولانصراً ، ونرجو الله أن يعاملهم بعدله فى قوله : ﴿ ولايَحِيقُ المكرُ السيءُ إلا بأهلِه ﴾(٤) ، فهذا حال الفرانسة فى اتحادهم وحيلهم وعنادهم ، وما اقتضاه فاسد اجتهادهم :

---

(١) آية ٨ مدنية من سورة آل عمران رقم ٨ .

(٢) وردت فى النسخة (ن. م. : ص ١٨٩ أ) : ما ستولى .

(٣) وردت فى النسخة الأم بدون تنقيط ، وفى النسخة (ن. م. : ص ١٨٩ أ) : تشتت ، ولكن هكذا الأصح .

(٤) الآية ٤٣ مكية من سورة فاطر رقم ٣٥ .

يريدون ليطفِئوا نورَ الله بأفواهِهم والله مُتمّ نورِه ولو كرِه الكافِرون ﴾(١)، فكيف لا يكون فرضاً على كل أحد من مسلم وموحد ، أن يشمر (١٩٨) عن ساعد الجد(٢) ، ويبذل نفسه وماله فى مرضاة الواحد الفرد ، ويمتثل قول أصدق القائلين :﴿ وسارِعوا إلى مغفِرةٍ من ربّكم وجنةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ أُعدّت للمُتّقين ﴾(٣)، ويكون رابحاً فى بيعه عن الخسران مستبشراً بإبذال نفسه فى سبيل الرحمن ، لقوله تعالى :﴿ إن اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسَهُم وأموالَهُم بأن لهُم الجنّة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتَلون وعداً عليهِ حقاً فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآن ﴾(٤)، إلى غير ذلك من الآيات البينات ، والأحاديث الصحيحة المروية عن الثقات ، مما يحث على نصرة الدين، ويلم شمث الموحدين ، فالآن أنتم ياشريف مكة ، وسادات الأشراف ، وقايات العرب(٥) وحماة الدين ، وكمات المسلمين ، وغزاة الموحدين، وأبطال الحروب الماحين بصوارم عزمهم عن الدين ظلام الكروب ، يارجال الغارات، ويا أركان الشريعة والعبادات ، وياحفظة الدين والأمانات ، يا باذلين النفوس عند انتهاك الحرمات ، ويا كافة إخواننا فى الدين ، والذين هم لشريعة نبيهم ناصرين ، البدار البدار ، إلى طاعة الملك الغفار ، لمحافظة قبلتكم ، ومحتد نبيكم ، منشأ الإسلام ، ومسجد نبيكم عليه السلام وموطن مضاعفة عباداتكم من ساحة بيت الله الحرام ، فالغيرة الغيرة ، والحمية الحمية ، من صولة أعداء الدين ، الذين هم عن كل ملة مارقين ، وبكتب الله ورسوله مكذبين ، فشدوا عزائمكم للقائهم ، واحفظوا جهاتكم وسواحلكم ومنافذ بلدانكم ، وسارعوا

---

(١) الآية ٨ مدنية من سورة الصف رقم ٦١ .

(٢) جاءت فى النسخة (ن. م. : ص ١٨٩ أ) : ساق الجد .

(٣) الآية ١٣٣ مدنية من سورة آل عمران رقم ٣ .

(٤) الآية ١١١ مدنية من سورة التوبة رقم ٩ .

(٥) من : وقى ويقى ، بمعنى يدافع .

إلى الرباط إلى حدود الكفرة اللئام ، ببندر جده وينبع وما والاهما مما فيه صيانة المسلمين ، وحفظ أعراض الموحدين ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا تنازعوا فتفشلوا ، وفى سبيل الله اتفقوا وتحملوا ، وكونوا كلمتكم واحدة ، وأيديكم متناصرة متعاهدة(١) ، ولتكن سيوفكم بالغة ، وسهامكم راشقة ، وألسنتكم فى الطعن متلاحقة ومدافعكم صاعقة ، ونبالكم إلى أفئدتهم متسابقة ، ولتقصدون بذلك إعلاء كلمة الله ، والذب عن بيت الله ، ومسجد رسول الله ((صلى الله عليه وآله وسلم))(٢) ، ونرجو الله أنكم مؤيدون بنصر الله ، محفوظون بروحانية رسول الله ، ولا يكون لكم تخلف عن ذلك ، ولا تراخى فى حفظ تلك المسالك ، ونحن فى طرف السلطنة السنية ، نشرنا رآياتنا العلية وبحول الله وقوته وباهر عظمته ، تملكهم عساكرنا المنصورة ، وتقطعهم سيوفنا (١٩٩) المشهورة ، وقد سيرنا عليهم شجعان لا يبالون بالموت لإعلاء كلمة الله ، وغزاة يقحمون على النار محبة فى دين الله ، فنتعقب بقدرة الله أدبارهم ، لعل الله تعالى يرزقنا بهلاكهم ودمارهم ، فنجعلهم إن شاء الله هباء منثوراً ، كأنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً . فبادروا أيها المسلمون إلى الرباط(٣) بجده وينبع ، ومن تخلف فقد عصى الله وخالف أمرنا فإن أمرنا إليكم ، وحتمنا عليكم : ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبِروا وصابِروا ورابِطوا واتقوا الله لعلكم تُفلِحون ﴾(٤)، واستجلبوا صالح الدعوات من عجازكم(٥)، وصالحيكم وأفاضلكم عند البيت الحرام ، وقد قال تعالى : ﴿ انفِروا خِفافاً

(١) جاءت فى النسخة (ن. م : س ١٨٩ب) : متعاضدة .

(٢) زيادة من النسخة (ن. م. : س ١٧٩ب) .

(٣) أى المرابطة .

(٤) الآية ٢٠٠ مدنية من سورة آل عمران رقم ٣ .

(٥) يعنى : عجائزكم أى كبار السن .

وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ﴾(١) وقال عليه السلام : (المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً) (٢) ، وهذا يوم ينفع الصادقون صدقهم : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم، ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ، ولله مافي السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور . كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ، لا يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم

---

(١) آية ٤١ مدنية من سورة التوبة رقم ٩ .

(٢) حديث شريف ، ونصه الصحيح كالآتي : عن أبي بردة عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

(الامام مسلم ، الجامع الصحيح ، حـ ٨ ، م ٤ ، ص ٢٠) .

يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ، ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾(١) . فالبدار البدار إلى ما أمرناكم من الرباط ، والحذر ثم الحذر من خلاف ذلك ، هذا ما انتهى أمرنا إليكم ، ولازلتم موفقين بعون الملك المعين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه الميامين ، آمين ، آمين .

---

(١) الآيات ١٠٠ — ١١٢ مدنية من سورة آل عمران رقم ٣ .

[٨]

[ترجمة خطاب حكومة الإدارة بفرنسا إلى بونابرت عند قيامه بالحملة على مصر والمرسلة من السلطان إلى الشريف ومنه إلى الامام]

انتهى لفظ كتاب (٢٠٠) السلطان لم ينحرف منه حرف واحد . وطيه كتاب الفرنسيس فى مخادعته للإسلام ، ولفظه :

هذا صورة ما وقع من الاتفاق بين طائفة الفرانسة الفراعنة الأبالسة والأمر الذى دبروه ، والمجلس الذى قرروه وحرروه ، وإجماعهم فى ذلك على أخذ إقليم مصر وغيرها ، بأنواع الحيل ومكرها ، وأبواب الحرب والقتال ، والطعن والجدال وتعيينهم لذلك بونابارته سر عسكر(١) إلى الجهة المذكورة ، وخطابهم له فى الأمور المزبورة ، نقلت هذه الصورة عنهم بيد بعض عيون المسلمين بالتركية ، فعربت بالعبارة العربية ، الواصلة إلينا من نفس الدولة العالية لفظها ، قالوا :

إن إقليم مصر من الأقاليم العظيمة ، التى خيراتها جسيمة ، إيراد أموالها كثيرة ، ومنافعها غزيرة ، وفوائدها لا تحصى ، وعوائدها لا تستقصى ، وأمر ذلك مفهوم ، عند ذوى(٢) الفهم . وقد استولوا عليها وعلى خيراتها الضخم ، السناجق والمماليك الظلمة ، وظلمهم زاد فى النهاية ، ووصل(٣) إلى الغاية ، مما لا يخفى على سائر الناس ، المحفوظين الحـــواس ، والطائفة الفرنساوية ، لهم همم عليّة ، كل شىء أرادوه وتوجهوا إليه ، أخذوه

(١) اختصار سردار العسكر بمعنى قائد الجند .

(٢) وردت فى النسخة (ن. م. : ص ١٩٠ب) : ذى .

(٣) جاءت فى النسخة (ن. م. : ص ١٩٠ب): وتوصل .

واستولوا عليه ، فالمطلوب والواجب نزع هذا الإقليم المعظم من أيدى تلك الظلمة الذين ظلمهم عظيم[١] ، وتحوزه الطائفة الفرنساوية ، وتختص به دون البرية ، وقد آن لنا وقت أخذه والاستيلاء عليه ، ونظفر بعدها بما حواليه. ومن المعلوم لدينا أن دولة الانكليز علينا عدو كبير ، فتحتاج الفرنساوية أن تفعل مع أعدائهم من الانكليز وغيرهم أموراً تنكد عليهم الأحوال ، وتخيب فيهم الآمال ، فهذا لازم لابد منه ، ولا محيد عنه ، مقدم على سائر الأمور ، عند جميع الجمهور ، فإذا ملكتم أيها الفرانسة أقليم مصر المذكورة يهون عليكم ضبط الهنـــد والبحر المحيط المبحور[٢] ، من جهة السويس المعلوم ، فتنقطع تجار الانكليز كما هو مفهوم ، ويسهل عليكم أيضاً أخذ الأماكن الهندية ، التى فى تصرف أعدائكم الانكليز ، وتبلغوا الأمنية وتخلطوا البحر السويسى ببحر النيل[٣] ، كما كان عزم مصر على ذلك من تقدم قبلكم من الجيل ، فقد كان أعيانكم السابقون ، قصدهم خلط هذين البحرين لما فى ذلك من عظيم الشئون ، فلم يتيسر لهم ذلك ، وما سلكت بهم مسالك ، فإذا أنتم فعلتم ذلك ، تكونوا ظفـــرتم بما لم تظفر به الأوائل ، وحصلتم على مطلوب عزمهم الكامل ، فإذا حصل المقصود الشامل ، سهل عليكم أخذ بلاد العرب التى فى حكم بنى عثمان ، وكذا البلاد التى فى سواحل البحر المحيط إلى الهند ، ويمتد أمركم إلى باقى البسيط ، فإذا فعلتم هذه الأحوال انفردتم بالقوة والظهور فى سائر الأنحاء ، وكامل القرانات[٤] ، ولم يكن

---

(١) اشارة الى حكم المماليك بمصر .

(٢) هكذا وردت فى النسختين ، وذلك للدلالة على الاتساع .

(٣) إشارة إلى مشروعات الفرنسيين المتعددة منذ أيام لويس الرابع عشر بحفر قنال من النيل (عند القاهرة) إلى السويس ، لربط البحرين الأبيض والأحمر .

(٤) المقصود هو الأقران والقرناء ، ومفردها قرين ، وذكرت هكذا لالتزام السجع .

لكم نظير فى سائر (٢٠١) الجهات ، ولا يوجد لكم مثيل فى سائر الدول ، وأرباب الحسم والحول ، بل ربما تفوقوا اسكندر ذو القرنين ، وسائر أهل القوة فى المشرقين والمغربين ، ويصير لكم شأن واشتهار بين العالمين ، فى سائر الأمصار والأعصار(١) ، يابونه بارته أنت صاحب قوة واقتدار ، ورفعة ومقدار ، فى هذه الأمور المذكورة ، والأفعال المسطورة، لأنك شاويش(٢) عاقل ، ومدبر كامل ، ولم يكن من مضاهيك فى القوة والعقل والتدبير ، والرحيل والمسير(٣) . فلهذا حيث كنت كذلك ، وانفردت من بين أولئك ، فوضنا هذا الأمر إليك ، وقلدناه فى عنقك ، وعولنا فيه عليك ، وخرج من عهدتنا إلى عهدة عزمك ، والرأى لديك ، وهذا الحال الذى ذكرناه إليك ، من أخذ إقليم مصر وبقية الأقاليم ، على ما قررناه لك يا فهيم ، تحمله فى مدة قليلة ، على حالة جميلة ، ولا شك عندنا فيه ، ولا وهم يعتريه، ويؤيد ذلك أن الظلمة المستولين على الأقاليم ، حالهم وخيم ، لأن عقولهم خفيفة ، وقلوبهم ضعيفة ، وليس عندهم رأى ولا تدبير ، والطمع أعماهم وأورثهم التدمير ، فاتصفوا بكامل الحماقة والغرور ، وتزايدوا فى الفسق والفجور ، ولم يوجد فيهم صغير ولا كبير ، عنده فهم أو تدبير ، ولا نظر فى العواقب للأمور ، ولا خشية من الجمهور، فالغفلة والبلادة استولت عليهم أجمعين ، وكذلك من يكون لهم من التابعين ، فهم على هذه الحالة الشنيعة ، والأفعال الفظيعة ، ليس لهم همة إلا جمع الأموال بسائر طرق الوبال من التغلب والظلم وأضرار العباد ، وتخريب

---

(١) أى العصور ومفردها : عصر .

(٢) وردت فى النسختين : لأن شاويش ، بل واهتم الناسخ بضبطها فى النسخة (ن م . : ص ١٩٦ أ) هكذا : شاويش . ويبدو أنها وردت هكذا لغرابتها اذ أن هذه الألقاب العسكرية ذات أصل تركى ، وقد اضطررنا للتصحيح لتوضيح المعنى .

(٣) اشارة الى شهرة بونابرت النامية حينذاك وخاصة بعد حملته على ايطاليا .

البلاد ، كلما رأوا جهة نفع مالوا إليها ، واستأصلوها واحتالوا عليها ، فنفرت منهم قلوب الرعية ، وبغضتهم سائر البرية ، فأنتم يا فرنساوية ، إذا أخذتم إقليم مصر بالسوية ، ((تحتاجون)) أن [١] تفعلوا مع الناس مكراً وحيلا بالإيناس ، من حيث يرغبون إليكم ، ويكونون لكم لا عليكم ، ويصيرون معكم شيئاً واحداً ، ويداً وساعداً ، بأن توعدوهم بمواعيد الخير المعروف ، وتخادعوهم بأنواع الخداع المألوف ، وتكرروا عليهم أمثال ذلك ، حتى تتمكنوا هنالك ، وتتملكوا أولئك ، فبعد ذلك تفعلون ما بدا لكم فعله ، ويتفرق جمع كل منهم وشمله ، وهذا الأمر محقق عندنا ، ومعلوم لنا ، فإنكم إذا سلكتم هذه الطريقة المذكورة ، ملكتم بها القلوب المغرورة ، وانتصرتم على المماليك الظالمين ، وبقية من يعاندكم من المقدمين ، فأنتم إذا توجهتم إلى تلك البلاد ، وحللتم بذلك الواد ، مخيرون بين أمرين ، لا بد من أحدهما بغير مَيْن ، إما خداع ومكر وحيل ، وإما حرب قوى يزلزل الجبل ، فالذى يقتضيه الحال فاسلكوه وما لا احتياج لكم إليه فاتركوه .

وقد بينا لكم ما يلزمكم فى سفركم ، وما تحتاجون إليه من نفركم ، فأول الأمور المراكب التى عندنا فى بلاد طولون [٢] عدتها كثيرة . وفيها عساكر وافرة غزيرة ، وأهل استعداد متين ، وتدبير مبين ، وفيهم من يعرف التركية والعربية ، وغيرهما من اللغات النصرانية ، وفيهم أرباب (٢٠٢) الصنائع المحتاج إليها فى الحروب لفتح البلاد ، وقمع أهل العناد ،

---

(١) وردت فى النسختين : تحتاج تفعلوا ، فقمنا بتصحيحها .

(٢) ميناء على الشاطىء الفرنسى الجنوبى المطل على البحر الأبيض المتوسط ، وهو الميناء الذى خرجت منه القوة الرئيسية للحملة الفرنسية وعلى رأسها بونابرت .

فهؤلاء تصحبوهم معكم جميعاً[١] ، وتتوجهون بقوة سريعا ، إلى ثغر اسكندرية ، وترسلون أخباراً إلى أمراء مصر البهية ، وتعرفونهم بطريق المكر والخديعة ، إننا مقصدنا يا أمراء مصر وأعيانها ، أن نعمل معكم كل خير ، ونبعد عنكم كل ضير ، ونجعلكم مستقلين ومنفردين بأحكامكم فى سائر إقليمكم ، ولا نجعل لأحد عليكم سبيلا ، وتكونوا أقوى قبيلا ، ونخرجكم[٢] من تحت يد من يحكمكم من الأنام ، من كل خاص وعام ، بحيث لا تكون عليكم يد من أحد ونكون وإياكم حالة واحدة إلى الأبد ، وإذا أخذنا بلاداً أخرى من غير بلادكم ، جعلناها لكم ، فأنتم أولى بها وأحرى ، ونفوض أمر البلاد إليكم ، ونعتمد فى أمورنا عليكم ، فاذا كنتم أيها الأمراء على هذا المنوال ، حصل لنا ولكم المقصود الأعظم وامتنع الاختلال ، ومعلوم عندنا أن فيكم قوة لذلك ، واستعداداً لما هنالك ، بل همتكم أعلى ، ورأيكم أجلى ، لأنكم موصوفون بالقوة والشجاعة ، معروفون بالمهابة والبراعة فبناء على ذلك أردنا أن نكون معكم أيها الأمراء على هذا المجال[٣] ، ومعينين لكم فى سائر الأحوال .

ثم إنكم أيها الفرنساوية ، أهل العصابة القوية ، تدخلون على أهل مصر من أمراء وغيرهم بهذه المداخل ، وتوزعون عليهم أنواع الحيل والمشاكل فهما ظهر لكم مما يناسب حالكم ، فافعلوا ما بدا لكم ، فلا تهملوه ،

---

(١) من المعروف أن الحملة كانت تضم عددا كبيرا من العلماء والخبراء والفنيين والمهنيين فى جميع نواحى الحياة ، وهم الذين وضعوا كتاب « وصف مصر » فدونوا به أوضاع مصر حينذاك السياسية والاقتصادية والجغرافية والزراعية وغير ذلك ، وهم الذين اكتشفوا حجر رشيد .

(٢) وردت فى النسخة (ن . م . : ص ١٩١ ب) نحرسكم ، ولكنها لا تتفق مع المعنى .

(٣) وردت فى النسخة (ن . م . : ص ١٩١ب) : الحال .

فانكم بهذه الطرق لا بد أنكم حبل قوتهم تحلوه ، وتأخذوا مصر وتملكوها ، وتحوزوها وتسلكوها ، فاذا حصل لكم ذلك ، ووصلت عساكرنا هنالك ، وتمكنتم من البلاد ، فلا تغفلوا عن أحوال البلاد ، ولا تسكتوا عن المماليك ، أهل الظلم الصعاليك ، ولا تطولوا مدة شاسعة ، بل بعد شهرين أو أربعة ، تعملوا عظيم الهمة ، بقوة وعزمة ، وتقطعوا رؤوس السناجق والأمراء ومن معهم من جنسهم ، أو من يتبعهم ، وتجتهدوا الاجتهاد الزائد فى حصول ذلك ، ولا تهملوا هذه المسالك . ومما يؤيد هذا الرأى السديد ، الذى آخره لنا حميد ، إنه سابقاً لما أرادت الدولة الروسية أخذ القرم(١) من الدولة العثمانية ، حصل بينهم وبين متوليه شاهينكيراى(٢) مراسلة ، وموافقة ومواصلة ، وخادعوه بالأموال ، وأوعدوه بالآمال ،

---

(١) هى شبه جزيرة القرم ، وتقع على ساحل البحر الأسود الشمالى ، وكان يقطنها حينذاك جماعات من التتار ، الذين استقروا بها بعد غزواتهم الأولى ، والذين كانوا وقت ذاك يتمتعون بالحكم الذاتى ويخضعون فى نفس الوقت للسيادة العثمانية . ولفرسان التتار شهرة فى الفتوحات العثمانية فى أوربا ، اذ كان السلاطين يستخدمونهم فى مقدمة جيوشهم لالقاء الرعب فى قلوب الأعداء نظراً لشجاعتهم وجرأتهم وعنفهم فى الحروب .

وقد وردت : القـــرم فى النسخة الأم غير منقوطة ، وفى النسخة (ن. م. : ص ١٩٢ أ) العزم ، وفى موضع آخر : الغرم ، وسبب هـذا الخلط هو غرابة الاسم على مسامع المؤلف والناسخ .

(٢) هو أحـد سلاطين التتار المتأخرين ، وكانت بقايا التتار — من القبيلة الذهبية — تخضع خضوعاً اسمياً للسلطان العثمانى منذ أن فرض العثمانيون سيطرتهم على شبه جزيرة القرم فى ١٤٧٥ م . وكان هؤلاء التــتار يقومون بالغارات المتعددة على الدولة الروسية الناشئة فى موسكو ، وعندما اشتد ساعدها أرادت اخضاعهم لها ، وتمكنت قيصرة روسيا الشهيرة كاترين من أن تجبر الامبراطورية العثمانية — فى معاهدة كوبك قينارجه عام ١٧٧٤ — على الاعتراف باستقلال شـبه جزيرة القرم ، حتى يسهل التهامها فيما بعد ، وهذا ما فعلته بعد سنوات قليلة ، اذ أعلنت ضم الاقليم الى ممتلكاتها فى عام ١٧٨٣ .

Encyclopaedia Britannica : Vol. 6, p. 762.

على أن يسلمهم بلاد القرم المذكور ، فاستولى عليه الغرور ، بسبب مواعيدهم(١) الكبيرة ، وأطماعه الغزيرة ، حتى مكنهم من ذلك ، وسلمهم تلك الممالك ، فأخذوا القرم وضبطوه ، واستأصلوا ما فيه وربطوه ، ثم بعد ذلك أخرجوا شاهينكراى من بلاده ، وأذاقوه (٢٠٣) طعم الكيد وعناده ، حتى آل أمره إلى قتله ، وتمزق حاله من أصله ، لكنما خرج بعد نحو ثلاث سنين ، وفيها كان يفعل مع الروسية كل مهين ، ويتحملونه لأجل مقصودهم ، وحصول مأمولهم ، فلو كان بالقتل والإخراج ، لما حصل لهم تعب ولا انزعاج . فالأولى لطائفة الفرنساوية أن لا يطولوا(٢) مدة الأمراء المذكورين ، بل يبادروا بهلاكهم أجمعين ، حكم ما أشرنا إليكم ، لئلا يحدث منهم أمر يوجب التعب عليكم ، فاراحة الطريق منهم أمر لازم ، وهو من المصالح التي حالها حازم ، وإن هرب أحد منهم إلى جهة من الجهات ، فلابد أن تتبعوه حتى تقتلوه على أى حال من الحالات ، ولا تبقوا منهم فى مصر ولا فى غيرها أحداً ، بل استأصلوه أنهم أعداء ، وإذا رأيتم فى مصر وغيرها من تكون له كلمة أو شوكة أو رأى أو انفراد ، بادروا بقتله يحصل لكم المراد ، وسواء كان من الأعاجم أو العرب ، ممن بعد وقرب . ومما يمنيكم بالظفر على الأمراء ، أنكم تخادعون غيرهم سراً ، وتقولون لهم نحن قاصدون لكم خيراً ، بأن نرفع عنكم الظلم والمشقات ، من هؤلاء الظلمة أهل الظلمات ، وتكونوا أنتم أرباب الحل والعقد والمناصب كلها بأيديكم ، والأحكام مفوضة إليكم ، ولا يكون لأحد عليكم صولة ، ولا تكلم ولا جولة ، فاذا خادعتموهم على هذا الحال ، بلغتم أعظم الآمال ، فى الإعانة على هلاك المصريين ، ووقعت الفتن بينهم أجمعين ، واختلفوا

---

(١) وردت هكذا فى النسختين ، ويرجح أنها : وعودهم ، ليستقيم المعنى .

(٢) جاءت في النسخة (ن. م. : ص ١٩٢ أ) : يطاولوا ، ولكن هكذا الأصح .

بيقين ، فيكون ذلك أقوى عدة لنا ، ومن مصالح أمورنا ، ومتى ظفرتم بذلك ، تبادروا حالا هنالك ، بضبط أموال الأمراء والتجار ، قبل أن يخفوا منها شيئاً أو يحصل لهم فرار ، لأن هذا أمر لازم ، ومتحتم من اللوازم .

والأمر الثانى من الأمور التى اتفق عليها الجمهور[١] ، أنه إذا تعسر عليكم أخذ مصر ، وقهر أهلها من الأمراء وغيرهم، بالحيل والمكر بهم ، فانكم ولا بد تحاربوهم بأنواع المحاربات القوية ، بالهمة العليّة ، ولا تقطعوا إهمالا فى هذه القضية ، والابتداء يكون من الاسكندرية ، فاذا حضرتم إليها ، وحصلتم عليها ، فان أمكنكم أخذها بالحيل والخداع ، فبها ونعمة بلا نزاع ، وإلا فحاربوهم وأحرقوهم وأخربوا ديارهم ، وأهتكوا أعراضهم ، ولا تخشوا من أحد فيها ، فانه ثابت عندنا ، ومحقق لدينا ، بأن قلاعها خراب ، وأسوارها متهدمة بلا ارتياب ، وليس بها أسلحة ولا آلات حرب تردكم ، ولا شجعان مثلكم ، ولا بها من يصدكم ، فلا تهملوا أمرها ، ولا تعتبروا أهاليها فان أردتم السير فى النيل ، فقد أعددنا لكم مائة مركب صغير ، صالحة لكم فى المسير ، فتدخلوا بها إلى مصر[٢] وتحاصروها ، وتقطعوا طائفة المماليك الذين فيها ، هذا أول أشغالكم ، وآخر أعمالكم ، فالذى ترونه مسعفاً لكم فى أخذ البلاد ، أما تدبير الحيل (٢٠٤) والخداع ، أو الحرب والقتل والدفاع ، تفعلوا مابدا لكم ، ومايقضيه رأيكم ، ثم بعد أخذكم البلاد ، تجتهدوا غاية الاجتهاد ، فتقطعوا كافة من فيها من المسلمين ، ولا تبقوا أحد من هؤلاء العالمين ، لأن البلاد لا تصفو لنا معاشر الفرنساوية ، إلا بقطعهم

---

(١) أى حكومة الجمهورية الفرنسية ، وقد ظلت القبائل اليمنية عدة سنوات بعد قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢ تطلق تعبير « الجمهور » على الحكومة الجمهورية التى قامت بعد نشوب الثورة ، وذلك فى الأناشيد الشعبية (أى الزامل وجمعها زوامل) وفى سائر أحاديثهم .

(٢) أي القاهرة ، ومازال هذا الاستعمال شائعاً بين العامة في مصر .

بالكلية ، وحاصل الكلام ، فى هذا المقام ، أنه إذا أمكنكم أيها الفرنساوية أخذ مصر بالمكر والتحيلات الخفية كما قلنا ، وفعلتم مثلما أشرنا ، كان ذلك فعلا حسناً ، وشيئاً مناسباً بيناً ، وإن لم يمكنكم أخذها إلا بأنواع الحروب وأصناف القتال والضروب ، كان أحسن وأجمل وأولى وأجل ، وأنتم فى ذلك بلغتم النهاية إلى الغاية ، وفى العقل والتدبير ، ليس لكم نظير ، فإذا تم لكم الاستيلاء على مصر وكامل أعمالها ، حصل لكم مع القوة مزيد كمالها واشتهرتم بين الأقران ، واستمر ذكركم فى سائر الأزمان ، وفيكم(١) الكفاية لما قلناه ، بل أبلغ مما ذكرناه ، فلا يقع منكم إهمال ، ولا يحصل بينكم امهال .

هذا آخر الصورة التى خاطبت بها الفرنساوية ، رئيس عساكرهم إلى مصر المحمية ، أهلكهم رب البرية ، واسم رئيس العساكر الملعون بونابارته . وهذه الصورة وصلتنا من حضرة السلطان ، فنقلناها بعينها لكم ، لتحيطون بذلك علماً وتقيدوها عندكم ؛ فإنها من المناكر الغريبة ، وليست من مثلهم غريبة ، والله الناصر عليهم .

---

(١) وردت في النسخة (ن. م. : ص ١٩٣ أ) : وفيه .

[٩]

[اتصال الشريف غالب ببونابارت فى مصر ليأمن جانبه]

(٢٠٤ هـ) ولما بلغ هذا المرسوم إلى الشريف غالب ، خاف على الحرمين الشريفين ، فبعث كتاباً إلى بونابارته يسالمه ويصالحه ، وأهدى له سبع سواعى ((نواخيذها[١] جواسيس))[٢] وشحنها من البن والملابيس ، واستعطفه على بلاده ، ((واستأمنه فى ماله ونفسه وأهله وأولاده))[٣] ، وسأله فرماناً يسأله فيه أن[٤] يضع خاتمه عليه ليكون به آمناً عن جاء إليه ، فاستحسن ذلك ، ورأى شريف مكة عاقلا ، فوضع له مرسوماً ((شاملا))[٥] يذكر فيه أن له عنده جلالة وقدراً ، وأن له فى قومه خطراً وذكرا ، وأنه محمى الجانب ، مصان من النوائب ، مقبول الكلمة ، لا ينال بلاده أحد من الجبابرة الظلمة ، وليثق بالأمر الدافع عن بلاده الأهوال ، ويقر عيناً بأن لا ينال بلاده أحد من الجبابرة الظلمة ، وليثق بالأمر الدافع عن بلاده الأهوال ،

---

(١) أى بحارتها ، ومفردها : الناخوذة أى قبطان السفينة .

(٢) زيادة من النسخة (ن. م. : ص ١٩٣ ب) .

(٣) زيادة من النسخة (ن. م. : نفس الصفحة) .

(٤) لم ترد عبارة : « يسأله فيه أن » فى النسخة (ن. م.) .

(٥) زيادة من النسخة : (ن. م : ص ١٩٣ أ) .

ويقر عيناً بأن لاينال هياره أحد من الأبطال . ولما ورد عليه هذا الجواب أنس به ، وأرسل من يستفصل له أخبار الكفار بمصر ، فجاءته أخبار مضطربة ، فكتب ((بعد))(١) هذا المرسوم الأول الذى عُرب(٢) ، كتاباً خر إلى المنصور لفظه : (انظر النص التالى)

---

(١) زيادة من النسخة : (ن م. : ص ١٩٣ أ) .

(٢) نتيجة وضع بعض الأخبار فى النسخة الأم فى هوامش الكتاب كما أشرنا فى الدراسة التمهيدية ، بالاضافة الى ما كان يكتبه المؤلف فى المتن ، فقد تكررت بعض العبارات كما حدث هنا ، وقد أدرك الناسخ هذا فى النسخة (ن. م. : ص ١٩٣ أ) فشطب العبارة المكررة ، وكتبها بعبارة موجزة أدت المعنى والعبارة المكررة هى : « وكتب الشريف الماجد غالب الى خليفة الوقت المنصور بالله صحبتها هذا » . ثم يذكر نص الخطاب .

والعبارة المشطوبة هى : « وبعث به الى جميع جهات المسلمين ، وأصحبه الى خليفة الوقت كتاباً منه لفظه » .

[١٠]

[الكتاب الثانى من الشريف غالب إلى الإمام المنصور]

« الحمد لله تعالى شأنه ، نهدى سلاماً أعبق الكون شذاه ، وأخجل البدر لحسن طلعته ورناه ، وتحيات مكية الأرج ، مدنية المدد تحمل النصر والفرج، إلى جناب معدن الخلافة العلوية ، ومنبع الكمالات الحسنية ، وطراز عصابة الهواشم ، وصفوة القادة الفواطم ، من دانت له رقاب الفراعنة فى أقطاره ، وخضعت له رؤوس الأكابر فى جميع أمصاره ، ذى الأخلاق المرضية ، والشمائل الرضية ، المنظور بعين عناية الله المتين ، والمنصور بسلطانه فى كل حين ، أخينا وعزيزنا الإمام بن الامام بن الامام أمير المؤمنين ، أدام الله له الاقبال ، وبلغه بجاه جده خير الآمال . وبعد ، فباعث تحريره ، وموجب تنميقه وتسطيره ، حمد الله سبحانه وتعالى على نعمه وآلائه ، ومننه ونعمائه، والسؤال عن جنابكم ، والفحص عن أخباركم ، باعلان الدعاء (٢٠٥) وتبيان صدق الوفاء . وثانياً غير خافى جنابكم ، أنه « من » قبل ، صدر منا إليكم كتاب بأخبار حوادث المشركين بمصر ، وصورة جميع ماورد إلينا من الخطاب المعلن ينصح مضمونه نهج الصواب ، وله الحمد سبحانه على جزيل فضله ، وعظيم امتنانه ، الذب (كذا)[1] إعانه على الحق وأعوانه ، بنصرة عباده المسلمين وتمام إحسانه ، والذى نبديه إلى مسامعكم الزكية ، أنه ورد إلينا يوم تاريخه نجاب[2]، من جانب مصر ببشائر النصر وأهنأ الخطاب ، وذلك أن أمير الجمهور الفرنساوى اللعين ، جمع كافة أعيان رعاية مصر المسلمين، وضبط عليهم جميع البيوت والحارات ، وحط على كل بيت من المسلمين شىء

---

(١) هكذا وردت فى النسختين وهى بمعنى الدفاع .

(٢) أى رسول .

من المبالغ والبلغات[1] ، بحيث لاطاقة لأهل الاسلام تسليم ما افترض عليهم من الجور العام ، وقد ((حدد)) [2] عليهم جميع تلك الأموال فى نهارين ، وأوعد من لم ينجز وعده بالهلاك والشين[3] ، فخرج من عنده المسلمون فى حيرة ، واجتمعوا فى أماكنهم لأجل التشاور والبصيرة ، فألهم الله قلوبهم الاسلامية ، ووفق حميد آرائهم الايمانية ، بالهجوم من كل جانب على المشركين ، وأبذلوا نفوسهم لمرضات رب العالمين ، فخرجت كافة رعايا الاسلام من منازلهم وهجمت على المشركين فى أماكنها ، وصار الجهاد خلال بيوتهم ، والقتال فى جامع المشركين ودورهم ، وابتهجت مصابيح وجوه الاسلام ، وبسطت[4] صوارم سيوفهم فى أعناق الكفرة اللئام ، وأيدالله جنود الرعايا المسلمين بعظمته الباهرة ، وأهلك بسيوفهم كافة المشركين بالقاهرة ، وكان ذلك يوم حادى عشر جمادى الأولى[5] ، وله الحمد فى الآخرة والأولى ،

---

(١) وردت هكذا فى النسختين ، وربما المقصود بها هو : البلاغات ، أى الاوامر .

(٢) وردت فى النسخة الأم : جدد ، ولكن هكذا الأفضل لاتفاقها مع المعنى .

(٣) فى هذه العبارات اشارة الى الاجراءات المالية التى اتخذها بونابرت لزيادة دخل خزينته ، ولاعتماده على الموارد المحلية لتغطية نفقات حملته بعد هزيمة الأسطول الفرنسى فى معركة أبى قير البحرية . ولقد كانت هذه الاجراءات هى السبب المباشر فى نشوب ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨ م) . وقد فصل الجبرتى هذه الاجراءات فقال : « ... وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة والأوسط ستة والأدنى ثلاثة ، وما كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معاف . وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخاً للأعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى وشرعوا فى الضبط والاحصاء ، وطافوا ببعض الجهات [لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها . ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك » . (الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ٢٥ — ٢٦) .

(٤) وردت فى النسخة الأم : وسطت ، ولكن ما جاء فى النسخة (ن . م . : ص ١٩٣ب) هو الأفضل .

(٥) عام ١٢١٣هـ ، وهو يوافق ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م .

فأرسلت الرعايا المنصورين ، نجاجيب(١) الرعية لأمراء مصر المحترمين ، وكان أقربهم لمسيرة يوم عن البلاد ، حضرة محبنا الأمير مراد(٢) ، ففزع بكافة من حوله من العشائر والأجناد ، ودخل بلاد مصر يوم ثانى عشر شهر جماد ، وظفر بقتل ما بقى من الكفار ، وانتظم شمل المسلمين بصفاء الدار ، فلله مزيد الحمد والثناء ، على تلك المسرة والهناء ، فبقصد مسرتكم

---

(١) بمعنى رسل ومفردها نجاب .

(٢) كان مراد بك قد فر الى الصعيد عقب هزيمته فى معركة امبابة أمام بونابرت ، واستمر فى حروبه ضدهم رغم محاولة بونابرت الصلح معه وتوليته أمر الصعيد تحت السيادة الفرنسية ، وقد ظل مراد بك على اتصال بالقاهريين ليوقد غضبهم على الفرنسيين وكانت رسله ومراسلاته اليهم من أسباب قيام ثورة القاهرة الأولى ، ولكن لم يثبت تاريخياً أنه دخل القاهرة حينذاك كما يشير المؤلف . ومراد بك أحد الأمراء المماليك المعروفين فى تاريخ مصر الحديث ، وهو من مماليك محمد بك أبو الذهب مملوك على بك الكبير ، وكان هو وابراهيم بك أشهر مماليك أبى الذهب وأرفعهم شأناً واقتسما الحكم بعد وفاة سيدهما . وكان أبو الذهب قد أقام ابراهيم بك نائباً عنه فى حكم مصر عندما زحف الى الشام لمحاربة الشيخ ظاهر العمر هناك ، واصطحب معه مراد بك ، وعند وفاته فجأة بالشام بايع المماليك مراد بك خلفاً لسيدهم ، وعند عودتهم الى القاهرة استقر رأيهم الجميع على تقديم ابراهيم بك وجعله شيخاً للبلد ، وعكف مراد بيك على لذاته وشهواته ، وقضى أكثر زمانه خارج المدينة . . « كل ذلك مع مشاركته لابراهيم بيك فى الأحكام والنقض والابرام والايراد والاصدار ومقاسمة الأموال والدواوين وتقليد مماليكه وأتباعه الولايات والمناصب ، وأخذ فى بذل الأموال وانفاقه على أمرائه وأتباعه » . وقد سبق أن ذكرنا — فى الدراسة التمهيدية — أنه قد أساء حكم مصر هو وابراهيم بك ، وأهملا شئونها ، وأكثرا من ابتزاز الأموال وفرض المغارم والأتاوات ، وكان هو من أعظم الأسباب فى خراب الاقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم . . « ظالماً غشوماً متهوراً مختالا متكبراً الا أنه كان يحب العلماء ويتأدب معهم وينصت لكلامهم ويقبل شفاعتهم . . ويحب معاشرة الندماء والفصحاء وأهل الذوق والمتكلمين ويشاركهم ويباسطهم » . وقد ظل بالصعيد مناوئاً للفرنسيين حتى تم الصلح بينه وبين كليبر — خليفة بونابرت فى قيادة الحملة — ولكنه توفى أثناء توجهه الى القاهرة « باستدعاء الفرنسيين » ، وكانت وفاته فى رابع شهر الحجة (عام ١٢١٥ هـ) بمدينة سوهاج بالصعيد ، ودفن بها (الجبرتى : عجائب الآثار ، حـ ٣ ، ص ١٧٥ — ١٨٠) .

حررنا على الفور هذا الرقيم ، بحصول المخبرة على نصرة الدين القويم ، هذا ما عن لنا به إخباركم لازلتم فى حفظ مولاكم ودمتم سالمين ، ومهما جد عرفناكم ، وما حدث تعرفونا به (٢٠٦) وتكون الأخبار بيننا غير منقطعة هذا وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

حرر فى شهر جمادى أول سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف سنة .

ولا يخفاكم عن حال داواتنا المتعودة بالوفود إلى مرامى بنادركم ، لاتزال دائماً متأخرة في شحنتها عن سفن التجار فى ناديكم ، فالآمال[1] وفودها فى كل عام أربعة أجواش[2] بشحنتها إلى بندر جدة ، ونرجو الله بهمتكم نستدرك الآمال ، وتنتظم مراجينا فى كل حال ، فالمرجو من حميد توجيهات همتكم العليّة ، بروز أمركم لكافة من كان بالبنادر البحرية من أمرائكم ، بأن تكون داواتنا مقدمة فى الشحين قبل كل داو وغراب ، وتكون جارية تلك القاعدة بهمتكم ، فى جميع مراسيمكم ، كما هو المأمول من جنابكم ، والمسئول من مزايا أخلاقكم ، ونرجو الله تعالى أن رجانا غير مردود ، وفضل الله غير محدود ، هذا ما عن لنا به التماس ، ودمتم سالمين . انتهى .

---

(١) وردت فى النسختين : فى الآمال . ولكن هكذا أصح ، والغرض منها هنا هو الرجاء .

(٢) هكذا وردت فى النسختين ، وقد صعب الوصول الى معنى محدد ، فربما يكون مفردها جوش بمعنى الصدر ، وقيل الجوش هو الصدر من الانسان ، ومضى جوش من الليل أى صدر منه (ابن منظور : لسان العرب ، حـ ٨ ، ص ١٦٤) . وربما تكون اشتقاقاً من التعبير الشائع فى مناطق تعز والحجرية باليمن وهو يجاوش بمعنى يتاجر ، وأن فلان جاوش هذا العام بمعنى اشتغل بالتجارة هذا العام . وربما تكون الأجواش نوع من السفن التجارية ، أو نوع معين من الحمولة أو العبوة أو قياس من مقاييس الوزن .

[١١]

[رد الامام المنصور على كتابى الشريف غالب]

فأجاب الامام المنصور ، على ذلك المسطور :

الحمد لله ﴿ كتبَ اللهُ لأغلبنّ أنا ورُسلى إنّ اللهَ قوىٌ عزيزٌ ﴾(١)، سلام تنضح أردان الأمصار بنوافح نشره ، وتتعطر أكوان الأعصار بروائح بشره، وتتضاحك ثغور الأزهار لشميم شذاه ، وتتمايل قدود الأبكار لنسيم رياه ، وتطلع أنوار بدوره فى سماء المعاهد الشريفة المعظمة ، وتسطع أشعة شموسه فى فلك المشاهد المنيفة المفخّمة ، يخُص حضرة جناب سليل الهواشم ، ويحل بساحة نبيل الدوحة المطهرة من أبناء الفواطم ، ويلم بمقام جليل السادة القادة الأكارم الخضارم ، رئيس حرم الله ، أمير مهابط وحى الله ، مقيم شعار الجهاد ، هادم أركان الفساد والعناد ، أخينا الأكرم ، حبيبنا الطاهر الشيم ، أمير الشرفاء ، شريف الأمراء ، كبير العظماء ، عظيم الكبراء ، الشريف الأوحد ، غالب بن مساعد ، أدام الله إسعاده ، وثبت فى ملكه أطنابه وأوتاده . وكثر أعداده وأجناده ، وأباد حساده وأضداده ، وتولى بعين عنايته إصداره وإيراده ، وبعد حمد ((الله))(٢) واجب الوجود، وشكر مفيض الكرم والجود، والصلاة والسلام على حامل لواء شرائع الاسلام ، القائم بأعباء الرسالة أنهض قيام ، وعلى آله الناشرين لأعلام الدين ، التابعين بسطواتهم رءوس العاندين ، (٢٠٧) وعلى أصحابه القاصمين حبائل الكفران ، القاصمين عقد الشرك والطغيان ، فانه وصل من جنابكم العظيم، ومقامكم الفخيم، كتاب كريم، يحكى ما صنعته أيدى الكفر ، بمصر صانها الله عن كل نكر، فياله

---

(١) الآية ٢١ مدنية من سورة المجادلة رقم ٥٨ .

(٢) زيادة من النسخة (ن. م. : ص ١٩٤ أ) .

من حادث يبلبل الألباب ، ويجلب من الأحزان مالم يكن فى حساب ، ووا ها له من خطب يصك مسامع الاسلام ، ويخدد الخدود بفيض مدامع الأيام ، ولعمر الله لقد أبكى وأنكى ، وروع وفجع وأوجع ، وأقام وأقعد ، وشتت شمل كل أنس وبدد ، لاسيما وتلك ديار مطهرة عن أدناس الكفران ، مقدسة عن أرجاس الطغيان ، معمورة بالايمان ، وعبادة الملك الديان ، على مرور الأزمان ، منذ افتتحها سيوف حزب الله ، ومحت أدران كفرها صوارم صحابة رسول الله ، فلقد أظلم الخطب ، وأدلهم الكرب ، وضاقت الصدور ، وغلت من الأحزان قدور ، ورغب فى النفير إلى سبيل الله الصغير والكبير وتشوق إلى جهاد أعداء الله كل جليل خطير ، وكيف لا وهذه نازلة قد نزلت بالاسلام والمسلمين ، وفادحة قد عمت المؤمنين أجمعين ، لأنها فى الدين ، ومن بعدت عنه ديارها ، فقد أحرقت قلبه وقالبه نيارها ، ولقد كنا على عزم بعث الغارة ، وإرسال طائفة من جنودنا المختارة ، ليكونوا من الفائزين ، بجهاد الكافرين . والظافرين بثواب هذه الطاعة التى هى سنام الدين ، كما صح عن سيد المرسلين . وأما الثغور فى جهاتنا فهى بحمد الله محفوظة ، وبعين العناية الربانية إن شاء الله تعالى[1] ملحوظة ، فقد وكلنا بحفظها من الأجناد من يقوم بهم الكفاية فى الاصدار والايراد ، وعند ذلك العزم المكين .

وأما كتابكم الآخر المبشر بالفتح المبين ، الحاكى لاستئصال شأفة الكافرين أجمعين ، فأنشدنا لسان حال السرور ، وحدا بنا حادى الحبور ، الذى عم الجمهور :

ثناء محا ذاك الأسى المتقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

فلقد انجابت ظلمات الهموم ، وتقشقعت غيوم الغمــــوم ، وابتلجت

---

(١) لم ترد فى النسخة (ن . م . : ص ١٩٤ ب) .

الخواطر ، وقرت النواظر ، وعند بلوغ تلك الأخبار ، أشعر نا هذه المسار[١] الكبار ، بما شاع في جميع الأقطار ، وذاع بين أهل البوادى والحضار(٢)، فيالها من مسرات شدت عضد الدين ، وفتت سواعد الملاحدين[٣]، وقصمت (٢٠٨) ظهور الكافرين ، وقلقلت معاقل المعاندين ، اللهم إنا نحمدك حمداً لايحيط به الحصر ، ونشكرك على مامنحت أمة نبيك من هذا الفتح والنصر.

وما لمحت إليه أيها الجناب الفخيم ، والأخ العظيم الكريم ، من أمر الداوات ، فمازالت أوامرنا إلى نوابنا فى الجهات ، برفع الظلامات ، والأعمال بالنيات ، وغير خاف على فهمكم السليم ، وفكركم الراجح القويم ، أن من العدل الذى قامت به الأرض والسموات ، أن يستوى القوى والضعيف ، والوضيع والشريف ، فى أنواع المكاسب والتجارات[٤]، كما حكم بذلك بارى البريات ، ولازلتم فى حفظ الله محوطين بعين كلاءته ورعايته وحمايته ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) كذا فى النسختين ، وربما بمعنى المسرات .

(٢) أى أهل الحضر ، واضطر الى نحتها لالتزام السجع .

(٣) وصحتها الملحدين .

(٤) فى هذه العبارات اعتذار عن تلبية رغبة الشريف غالب فى تفضيل تجارته فى الموانىء اليمنية وسرعة شحنها بالبضائع قبل غيرها ، كما سبق أن طلب فى خطابه السابق (النص : ١٠) .

[١٢]

[زحف بونابارت إلى الشام وحصار عكا]

(هـ ٢٠٨) وفى شوال من هذا العام ، تعدت الكفرة للشام ، إلى أطراف الشام ، فخرجوا فى خمسين ألفاً وقصدوا عكا بلدة أحمد الجزار ، فحاصروه أربعة وستين يوماً(١) ، واشتد(٢) الكرب على المسلمين ، وجهز السلطان ثمانية عشر مركباً حربية ، وخرج الجزار فكانت ملحمة هلك فيها من الكفار أكثر من ستة عشر ألفاً(٣) ، وتبدد جمع الكفرة ، وقد أتينا على تفصيل الخبر ، وما كان من أمر الجزار ، وتعلله بالمرض فى أيام الحصار ، واستدعائه لكبار الفجار ، ودخولهم إليه ، ومثولهم بين يديه ، واستدعائه لكبير الانقليز قنصل ((صاحب مالطة))(٤) وتحكيمه له فى أولئك بأن يمضى سيفه فيهم ويستأصل(٥) ، وذكرنا الأمراء وماكان من

---

(١) اتفق لطف الله جحاف مع الجبرتى فى صحة عدد أيام حصار عكا .
(الجبرتى : عجائب الاثار ، جـ ٣ ، ص ٧٢) .

(٢) وردت فى النسخة (ن . م . : ص ١٩٥ أ) : فاشتد .

(٣) فى هذه العبارة ، وفى عبارة « فخرجوا فى خمسين ألفاً » دليل على المبالغة التى كان يقع فيها المؤرخون القدماء عند التحدث بالأرقام ، اذ من المعروف أن عدد أفراد الحملة من مشاة وبحارة وعلماء وفنيين لم يتجاوز الأربعين ألفاً . وقد تجاوز الجبرتى هذا الخطأ فلم يذكر رقماً محدداً للفرنسيين الذين توجهوا الى الشام ، بل أشار الى أنهم خرجوا جماعة بعد أخرى فى فترات متتالية ، وذلك عندما بدأ يتحدث عن أحداث حملة الشام .
(الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٤٦ وما بعدها) .

(٤) زيادة من النسخة (ن. م. : ص ١٩٥ ب) وقد سبق أن ناقشنا حقيقة أوضاع مالطة فى ذلك الوقت .

(٥) جاءت فى النسخة (ن . م . : ص ١٩٥ ب) : ففعل واستأصل .

أبى خشبة (١) وابن كايون الملعون (٢) ، وذكرنا حيلة الجزار فى إيقاد النار على الكفار بقلعة (٣) عكا فى ((كتابنا « قرة العين بالرحلة إلى الحرمين » فأغنانا عن الإعادة)) (٤) .

---

(١) هو الضابط المهندس كفاريللى ، كان خبيراً فى وضع خطط محاصرة الحصون والقلاع وقد بترت ساقه فى احدى المعارك ، فعاش بساق خشبية ولذلك أطلق عليه « أبو خشبة » . ووصفه الجبرتى بقوله : « وأن مهندس حروبهم المعروف بأبى خشبة عند العامة واسمه كفرللى مات وحزنوا لموته لأنه كان من دهاتهم وشياطينهم ، وكان له معرفة بتدبير الحروب ومكايد القتال واقدام عند المصاف مع ما ينضم لذلك من معرفة الأبنية وكيفية وضعها وكيفية أخذ القلاع ومحاصرتها » . (الجبرتى : حـ٣ ، ص ٦١) وكان موت كفاريللى من ضمن الأسباب التى أدت الى رفع الحصار عن عكا ، وذلك كما جاء فى منشور بونابرت الذى أذاعه لتبرير عودته الى مصر دون الاستيلاء على عكا : « الثانى عشر : موت كفرللى الذى عملت المتاريس بمقتضى رأيه واذا تولى أمرها غيره يلزم نقضها ويطول الأمر ، وكفرللى هذا هو المعروف بأبى خشبة المهندس » . (الجبرتى : حـ٣ ، ص٧٢) .

(٢) لم نتعرف على هذه الشخصية التى ذكرها المؤرخ ، وربما خلط بين كفاريللى وابن كايون هذا التشابه ، فجعل من أبى خشبة وكفاريللى شخصيتين ، ولم يدرك أنهما شخصية واحدة .

(٣) ذكرت فى النسخة الأم بالتاء المربوطة وفى النسخة الثانية بالتاء المفتوحة .

(٤) العبارة التى بين القوسين بأكملها من النسخة (ن . م . : ص١٩٥ب) فهى غير واضحة فى النسخة الأم نتيجة قص الأوراق عند التجليد .

[١٣]

[اتصال الانجليز بالإمام لاقامة قاعدة لهم عند باب المندب ورفضه لذلك]

ودخلت سنة أربع عشرة ومائتين وألف .

وفى مفتتحها يوم الأحد عشرين شهر محـــرم(١) وصل القنطبان(٢) ولسان(٣) رسول ملك الانقلیز(٤) إلى الإمام فاحتفل لوصوله ، ونصب له

(١) يوافق ٢٤ يوليه ١٧٩٩م .

(٢) وردت هكذا فى النسختين ، وصحتها : القبطان ، وهو القائد البحرى .

(٣) ليس هذا هو الاسم الحقيقى للرسول الانجليزى الى الإمام ، وربما لجأ مؤرخنا الى استخدام هذا الاسم لجهله باسم الرسول ولسهولة نطقه ولميله الى السجع . ويدعى الرسول الدكتور برنجل Pringle ، وكان يعمل فى وظيفة مساعد جراح فى وكالة بومباى الانجليزية . وقد ذهب برنجل الى البحر الأحمر فى صحبة القائد الانجليزى موراى Murray الذى كلفته شركة الهند الشرقية باحتلال جزيرة بريم لمنع تسرب السفن الفرنسية الى المحيط الهنـدى بعد احتلال الفرنسيين لمصر . وعند وصـول الجنرال بيرد Baird الى المخا وجد « برنجل » هناك ، فسلمه خطابات وهدايا وكلفه بمهمة مقابلة الامام فى صنعاء ، هـذا مع العلم بأن هذا الجنرال هو الذى كان يقود الحملة الانجليزية من الهنـد الى القصير ليشارك فى اخراج الفرنسيين من مصر ، ولقد قيل أن مهمة برنجل الى الامام كانت لشئون تجارية بحتة ، ذلك على عكس ما ذهب اليه مؤرخنا فى هذا النص ، نظراً لضعف التجارة الانجليزية فى الهند مع جهات البحر الأحمر فى ذلك الوقت . وقد استجاب الامام لمطالب انجلترا — وتدور جميعها حول تقديم تسهيلات تجارية فى الموانىء اليمنية — كما استقبل برنجل بحفاوة كبيرة ، وتحققت أغراض المهمة التى جاءمن أجلها الى صنعاء .

(Playafir, R.L. : A History of Arabia Felix or Yemen p.p. 123 — 124).

(٤) وردت فى النسخة (ن. م. : ٢٠٧ أ) الانقليزى .

بدار الصافية(١) خيمة عظمى ، وأحضر عساكر الباب ، وجمع الخيول وألبسها فاخر الثياب ، وجعلها صفين ، فدخل من خارج بئر العزب(٢) مترجلا ، يقدمه عشرون نفراً بالسلاح ، ويحفه عشرة من الخدم ، وبيد رجلين منهم مذبات ثخينة ، يذبون بها عنه في الطرق الغبار ، ولما رأى الإمام على سريره ، خلع عن رأسه قلنسوته وألقاها وأقام ترجمانه بين يديه ، يعبر ((عنه و)) عن(٣) سبب وصوله إليه ، فأجمل الأمر فى ذلك الموقف ، وأنزله الإمام بالقرب من داره . والسبب الحاصل فى وصوله ، أنها لما دخلت الفرانسة ديار مصر ، وكان الانقليز معيناً لسلطان الإسلام ، فطمعوا فى تملك(٤) السواحل اليمنية ،

(١) ، (٢) حيان من أحياء صنعاء حالياً ، وكانا بمثابة ضاحيتان من ضواحيها فى زمن المؤرخ ثم امتد إليهما العمران بل وتجاوزها . وتقع الصافية إلى الجنوب من مدينة صنعاء الأصلية المسورة ، أما بئر العزب فيقع إلى الغرب منها ، وضمه إلى صنعاء سور يحيط به وبقاع (بحى) اليهود الذى يقع إلى الغرب من بئر العزب (والقاع فى لغة صنعاء هو الأرض السهلية المنبسطة أو الوادى) وذلك مع بقاء السور والباب الذى يفصل بين صنعاء القديمة وبئر العزب . وقد تميزتا الصافية وبئر العزب بكثرة بساتينهما المثمرة للفاكهة وغيرها ، وبقلة دورها ، فكانتا بمثابة متنزه لصنعاء الأصلية المكتظة بالمنازل والسكان ، وكان يجرى بهما غيل (نهر صغير) يمتلىء بالمياه بعد سقوط الأمطار . (الواسعى : البدر المزيل للحزن فى فضل اليمن ومحاسن صنعاء ذات المنن ، ص ١٦) . أما الآن فقد اكتظت هاتين المنطقتين بالمساكن ، وقلت الأراضى المزروعة بهما إلى حد كبير ، وأصبحتا جزء من قلب صنعاء الكبيرة ، التى شملها التوسع والعمران بشكل كبير بعد قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢ وانتقال مركز الحكم إليها بعد أن ظل عدة سنوات فى مدينة تعز فى عهد الإمام أحمد (١٩٤٨ — ١٩٦٢ م) . وقد هدم أغلب أجزاء سور صنعاء القديم وأكثر أبوابه ، وكان هناك رأى ينادى بالاحتفاظ بهذه الأشياء وبطابع المدينة التقليدى لجذب السياح إليها ، كذلك ينادى بأن يكون التوسع العمرانى لصنعاء فوق المرتفعات المحيطة بها وليس فى قاعها (أى فى وادى صنعاء) وذلك للاستفادة من الأراضى الخصبة المزروعة والابقاء عليها ، ولكن لم يلتفت أحد إلى هذه النداءات .

(٣) زيادة من النسخة (ن. م : ص ٢٠٧ أ) لتوضيح المعنى .

(٤) وردت فى النسخة (ن. م. : ص ٢٠٧ أ) : تلك .

وراموا أن يعمروا بباب المندب(١) ، فخرجوا إليه ، ونزلوا عليه ، وهموا به العمارة ، فمنعوا من ذلك ، وأرسل إليهم أهل عدن ، يخبرونهم بأنه لا يسعهم ذلك ، إلا أن يأخذوا إذناً من الإمام . فتماروا فى ذلك ، وباطنهم مضمر للشر ، فاضطروا إلى بعث ولسان ، وهو من دهات الانكليز ، فطلع وأفصح عن مطلوبه(٢) ، فلم يجبه(٣) الإمام ، إلى ذلك المرام ، فرجع خائباً ، وكان خبر هذا الانكليزى ، وما هم به (٢٢٤) قد طار كل مطار ، فلم يسعه المقام هنالك ، فسيره الإمام ، وأصحبه جماعة من جنده يحفظونه من رعاياه ، فخرج من بئر العزب يوم الجمعة ثانى شهر صفر(٤) ، منكسراً خائباً ، و((كان بصنعاء قد))(٥) اشتد الأمر عليه ، لما وصل رسول(٦) الانكليز إليه من باب المندب فى يوم الثلاثاء تاسع وعشرين شهر المحرم(٧) بكتاب ظهرت عليه به الكآبة ، فأفهم أن السلطان قد بعث بجنود جرارة ، وأنه قد شارف على الظفر بديار مصر .

---

(١) من المعروف أن انجلترا احتلت جزيرة بريم لمدة أشهر خلال عام ١٧٩٩ لغلق البحر الأحمر أمام تسرب السفن الفرنسية إلى الهند ، وذلك عقب مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر .

(٢) وردت فى النسخة (ن. م : ص ٢٠٧ أ) . مطلوبهم .

(٣) وردت فى النسخة (ن م. : ص ٢٠٧ أ) : يجبهم .

(٤) يوافق السادس من يوليه عام ١٧٩٩م .

(٥) زيادة من النسخة (ن. م. : ص ٢٠٧ أ) .

(٦) وردت فى النسخة (ن.م. : ص ٢٠٧ أ) : لأنه وصله .

(٧) يوافق الثالث من يوليه عام ١٧٩٩م .

[١٤]

[الشريف غالب يحرض الإمام على عدم السماح للإنجليز بإقامة قاعدة لهم بباب المندب]

(٢٢٤) وتعقّب مسيره وصول كتاب من غالب بن مساعد أمير مكة المشرفة يذكر فيه بعد الترجمة أنه ورد إلينا كتب من جانب كبار الانكليز من الكفار ، بقصد بناء قلعة فى باب المندب ، الذى عليه طريق كل داو ومركب ، وهذا أمر يتفاقم خطبه ، ويعز بعد وقوعه معاناته وطلبه ، ويشمل كافة المسلمين ، ثم قال بعد كلمات يسيرة فى الشكوى : ثم إنه أمر لم يقع فيما قبله مثله ، ولا فى قديم الزمان فعله ، ولا جرى فى سابق الزمان ، ولا جرى فى دولة آبائكم ولا كان ، وداؤه يسرى فى جسد الإسلام سريان العلل والأسقام ، ويعيي داؤه الأساة[1] والأطباء ، وتحار أفكار العقلاء فيه والألباء ، فتداركوا الأمر قبل تحكمه ، وأبذلوا الجهد فى إطفاء هذا الشر قبل تضرمه :

وإن الشر أوله شرارة ويوشك أن يكون له اضطرام

وهناك يقع الندم حيث لا ينفع ، ويتحكم الداء الذى يعسر أن يدفع ، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق ، وهو المرجو للهداية إلى أقوم طريق ، فابذلوا همتكم الهاشمية ، ولا تمكنوا أعداء الله من هذه الحيل .

هذا محصل تحريضه نقلناه من كتابه .

---

(١) الآسى هو الطبيب ، وجمعهم أساة وأسّاء ، مثل رعاة ورعاء فى جمع راع . ويقال أسوت الجرح فأنا آسوه أسواً إذا داويته وأصلحته (ابن منظور : لسان العرب ، جـ ١٨ ، ص ٣٦) .

[١٥]

[الإمام يطمئن الشريف غالب على موقفه من طلب الإنجليز]

وأجابه[١] الإمام المنصور بعد الترجمة يقول :

وبعد ، فإنه وصل من جنابكم الشامخ ، ووفد من مقامكم السامى الباذخ ، كتاب طابت فوائد معانيه ، فطالت قواعد مبانيه ، يحكى ما اتصل لمسامعكم من الأخبار ، المترجمة عن احتفال طائفة الكفار ، ببناء المعاقل فى أطراف هذه الديار ، (٢٢٥) وأنهم قد انتدبوا إلى باب المندب ، وراموا رفع أساس الأبنية ، وذب من عنه ذب ، وذكرتم ما يترتب على ذلك من المفاسد ، التى يشمخ بها أنف كل جاحد ، فلا جرم قد أرشدتم إلى منهج الرشاد ، ونظرتم إلى نوائب العواقب بعين الانتقاد ، بيد أن ذلك الخبر غير مطابق للواقع ، ومن دون صحته خطوب زعازع ، ومعارك سواطع ، وصواعق صواقع ، ووقائع روائع ، ودوافع موانع ، وهيهات هيهات ، فبينهم وبين إدراك هذه الطلبات قلاقل وزلازل ، وقساطل[٢] وصواهل[٣] ، وذوابل[٤] ومكاحل[٥] ،

---

(١) وردت فى النسخة (ن. م. : ص ٢٠٧ ب) : وأجاب .

(٢) قسطلة الجمل بمعنى هديره (القاموس المحيط : حـ ٤ ، مادة قسطل) والمقصود هنا هو الجمال التى تهدر عند الحرب والطعن .

(٣) صهيل الفرس أى صوته ، والمقصود هنا : الخيول عند صهيلها فى الحرب .

(٤) يقصد بها نوع من أنواع البنادق القديمة .

(٥) مفردها مكحل وهي نوع من أنواع المدافع القديمة التي تعتمد على النفط والاطلاق .

وصوارم(١) ولهاذم(٢) وخذم(٣) وملاحم ، انتهى .

---

(١) أي السيوف الحادة

(٢) اللهذم هو القاطع من الأسنة (القاموس المحيط : حـ ٤ ، مادة اللهذم) والمقصود هنا هو السنان الحادة القاطعة .

(٣) خذمة بمعنى قطعة ، وسيف خـــذم بمعنى سيف قاطع (القاموس المحيط : حـ ٤ مادة خذمه) والمقصود هنا : السيوف القاطعة .

ويرى الإمام من وراء العبارات السابقة أنه سيحارب رغبة انجلترا بكل قوة واستماتة ،

[١٦]

[تحقيق اسم قائد الجيوش العثمانية التى زحفت إلى مصر لإخراج الفرنسيين منها]

(٢٢٥) قلت : اشتهر[١] أنه خرج من جند السلطان شيخ العربان ، متجهزاً على حزب الشيطان ، الباشا أحمد طباطبا ، فى اثنى وعشر ألف مقاتل الرجالة وثلاثة آلاف فرساناً ، ((يحمل))[٢] زاده وأثقاله وخيامه عشرين ألف جمل (٢٢٥ ﻫ) وسمعنا بهذا أحمد طباطبا عن بعض الناس من أهل اليمن ، قال أنه رأى فى كتاب ورد أن اسم الخارج أحمد طباطبا ، والذى سمعناه بمكة وتلقيناه من المتطوعة مع السيد الجيلانى أن اسم الرجل أحمد جرار ، بجيم ومهملتين ، وهو الذى خرج عن أحمد الجزار صاحب عكا ، وهو بجيم بعدها زاى معجمة فألف فراء [مهملة][٣] ، وهذا تجهيز أول ولا يباين ما فى كتاب غالب .

---

(١) وردت فى النسخة (ن • م • : ص ٢٠٧ ب) : واشتهر ، ويقصد بها أنه قد : شاع وانتشر •

(٢) جاءت فى النسخة الأم : يحمله ، وما ورد فى النسخة (ن • م • : ص ٢٠٧ ب) هو الأفضل •

(٣) زيادة من النسخة (ن • م • : ص ٢٠٨ أ) •

[١٧]

[خطاب يوسف باشا والى المدينة المنورة العثمانى إلى الإمام]

وفيها وصل من الباشا يوسف صاحب المدينة(١) إلى الإمام جواب أجاب به على الامام ، وكتاب من وزير الختام يوسف مدبر حضرة السلطان، فيه أن وزير الختام ، سينهض بنفسه لذلك المرام ، ولم يكن من الامام كتاب إلى يوسف باشا صاحب المدينة ، ولا إلى السلطان ، فلعله افتعله بعض(٢) المفتعلين(٣) .

---

(١) هو أحد قادة العثمانيين الكبار وحارب كثيراً فى جهات أوروبا ، وأخذ يترقى المناصب حتى وصل إلى منصب الصدر الأعظم ، وظل به مدة أربعة أعوام . وقد عرف عنه الرغبة فى الإصلاح بعد أن دب الفساد فى جسم الدولة ، فيقال أنه أعدم بعض الوزراء عقب توليه منصب الصدر الأعظم لفساد أمورهم . ويبدو أنه فى آخر رياسته قد أصابه اليأس والتعب ومال إلى التصوف ، فطلب من السلطان أن يعينه والياً لجده حتى يكون قريباً من الحرم المكى والنبوى ، فلبى السلطان طلبه . وقد شهد الحجاز فى عهده الأمن والاستقرار بعد أن قضى على المتمردين والمفسدين به . (الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، حـ ٢ ، ص ٣٥٧ — ٣٥٨) .

(٢) جاءت فى النسخة (ن . م . : ص ٢٠٨ أ) : بعد ، ولكنها لا تتفق مع سياق الحديث .

(٣) هذه العبارة توضح لنا أن مؤرخنا لطف الله جحاف ينكر أن الإمام أرسل إلى يوسف باشا والى الحجاز ، وإلى السلطان العثمانى — وكذلك فعل الشوكانى عند ترجمته لحياة يوسف باشا التى سبق ذكرها بل واستعمل هذا التعبير ذاته — وربما صدق الرجلان ، وإن العثمانيين هم الذين اتخذوا هذه المبادرة ، فكتبوا إلى الإمام لربطه بقضية الحملة الفرنسية على مصر ، وربما كان الشريف غالب هو الذى أوحى إلى يوسف باشا بالكتابة إلى الإمام ليدعم خطاباته هو إليه . ونرجح أن الشريف غالب والعثمانيين معاً كانوا يعملون على جذب الامام إليهم ، لأهمية موقع اليمن ، وحرصاً على تضامن الامام معهم ، وتحديد موقفه من الفرنسيين من ناحية ، ومن حلفاء السلطان حينذاك ، وهما انجلترا وروسيا ، من ناحية أخرى .

ولفظ كتاب الباشا يوسف صاحب المدينة إلى الامام :

الحمد لله حمداً لا نحصى ثناء عليه جل وعلا ، وكم وكفى أنا مؤمنون ، والصلاة والسلام على سيدنا وسندنا رسول الله ، نحن فى جواره ، من جاهد فى الله حتى أتاه اليقين ، وعلى آله وصحبه الذين بذلوا نفوسهم ابتغاء مرضاة الله رضوان الله عليهم أجمعين ، وبعد :

نبدى ذلك ونهديه إلى المحب فى الله والصديق لنا وإلينا ، خالصاً مخلصاً لوجه الله ، الأجل الأمثل الأبر المؤتمن العظيم ، إمام الزمن فى أقطار اليمن، كان محروساً ومطهراً من (٢٢٦) كل ألم ودرن ، بحرمة النبى الأمين .

بعد السلام عليكم ورحمة الله[١] ،الذى نعلمكم به ، وهو كل خير لما بيننا من المحبة السابقة ، والأخوة الاسلامية ، يا حبذا هى الرابطة القوية ، تقدمت إلينا من طرفكم ، كتب مفصحة لنا[٢] ، واستعلام وقائع الطائفة المنحوسة الفرانسة ، دمرهم الله وخذلهم بجاه محمد خير البرية ، وطلبتم منا إيضاح المبهم وأحوال طوائف الانكليزية ، وأن المؤمنين لبعضهم معينين فى نصرة الدين ، ولما أوعد الله مترقبين ، كما قال فى محكم التبيين : ﴿ وكان حقـًّا علينا نصرُ المـُـؤمنين ﴾[٣] ، ولامداد الدولة العلية منتظرين ، فلما أن علمنا منكم ذلك ، أعددنا الجواب إليكم سريعاً وأعلمناكم بها هنالك ، هو أن طائفة الفرانسة ، جعل الله ديارهم دارسة ، وأعلامهم ناكسة . قد اختلفوا ونقضوا العهد القديم والميثاق ، وتعدوا بقهر مصر والآفاق ، وطوائف

---

(١) لم ترد عبارة « ورحمة الله » فى النسخة (ن ٠ م ٠ : ص ٢٠٨ أ) ٠

(٢) إشارة إلى خطابات الامام إلى يوسف باشا ، وهذا ما أنكره لطف الله جحاف والشوكانى وما سبق أن ناقشنا ٠

(٣) الآية ٤٧ مكية من سورة الروم رقم ٣٠ ٠

الانكليز بيننا وبينهم رابطة قوية ، وصحب للإسلام ، فمن أتاكم من طوائف الفرنساوية اللئام ، أجرعوه وجرّعوه كؤوس الحمام ، ولا تبلّغوه مرام ، وأصدقائنا الانكليز أعطوه ما يهـــوى من مطاعم الشهوى ، والمشارب الحلوى . هذا وحين ماورد كتابكم ، أرسلت من خواص أتباعي إلى الدولة العلية وشرحنا لهم شأن صلابتكم في الدين ، وشجاعتكم في الميادين ، وإقدامكم معنا أيها المؤمنين ((كذا في الكتاب))[1] ، وإنكم متيقظين لستم بغافلين ، كما صدق من نطق فيما به الله عليكم اذ تفضل وأمتن : «إن الايمان يمان »[2] . فبعد أن علموا (كذا) الدولة العلية أحوالكم وأوصافكم ،

---

(١) زيادة من النسخة (ن . م . : ص ٢٠٨ ب) .

(٢) هذه العبارة إشارة إلى حديث شريف وليس نصاً للحديث نفسه ، إذ أنه حديث طويل وورد في أكثر من رواية . وقد ذكر الامام مسلم في صحيحه (وكذلك الامام البخاري والترمذي وغيرهم) هـذا الحديث بعنعنات مختلفة إنتهى جميعها الى الصحابي المعروف أبي هريرة رضي الله عنه . ففي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاء أهـل اليمن ، هم أرق أفئدة ، الايمان يمان ، والفقه والحكمة يمانية . وفي رواية أخرى عن أبي هريرة أيضاً ، قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرق أفئدة الفقه يمان والحكمة يمانية . وفي رواية ثالثة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الايمان يمان والكفر قبل المشرق والسكينة في أهل الغنم والفخر والرياء في الفدادين أهل الخيل والوبر (والفدادين هنا بمعنى المكثرين من الابل) . وفي رواية رابعة عن أبي هريرة أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الفخر والخيلاء في الفدادين أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم . وفي رواية خامسة أنه زاد عن النص السابق : الايمان يمان والحكمة يمانية . وفي الروايتين الأخيرتين اشارة واضحة الى أن طبيعة الحياة وظروفها هي سبب التفضيل الذي ذهب اليه الرسول صلى الله عليه وسلم . وفي رواية سادسة عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة وأضعف قلوباً الايمان يمان والحكمة يمانية ، السكينة في أهل الغنم والفخر والخيلاء في الفدادين أهل الوبر قبل مطلع الشمس . وفي رواية سابعة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرق أفئدة الايمان يمان والحكمة يمانية ، رأس الكفر قبل المشرق ، وفي رواية ثامنة بنفس الاسناد لم يذكر : رأس الكفر قبل المشرق ، وعقب هذه الرواية ، روى الامام مسلم حديث عن جابر بن عبدالله يقول : قال رسول الله =

وما أنتم عليه شكر واصفيهكم على قولكم ، وأرسلوا إليكم جواب كتابكم، من صاحب الدولة العلية العثمانية ، وهو وزير الختام الآن ، مدبر الجمهور الصدر الأعظم[١] « ضياء الحاج يوسف باشا »[٢] و (٢٢٧) ها هو مرسل إليكم صحبة كتابنا هذا على يد تابعينا الحاج إسماعيل أغا والحاج يحيى أغا، فمع سلامة الله تعالى إذا وصلا إليكم وقرأتموهما[٣] وعلمتم وأعلمتموهما للحاضر والباد ، فيلزم لكم بعد الآن أنتم الجهاد والاجتهاد فى ذلك الناد ، لأن الفرنسيس عدو الدين، ربما أن يفر أحدمنهم من طرف القصير[٤] ويأتى

صلى الله عليه وسلم غلظ القلوب والجفاء فى المشرق والايمان فى أهل الحجاز ، وروى ذلك الحديث مع الروايات السابقة فى باب تفاضل أهل الايمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه من كتاب الايمان فى صحيحه . ويعتز اليمنيون كثيراً بهذا الحديث الذى تحدث عنهم ويفتخرون به دائماً ، فيشيرون اليه باستمرار فى أحاديثهم وفى مقدمات كتبهم المخطوطة والمطبوعة ، كما أسموا أول جريدة ظهرت فى بلادهم باسم الإيمان ، وأول مجلة أيضاً باسم الحكمة وذلك فى أواخر الثلاثينات من هذا القرن . (الامام مسلم : الجامع الصحيح ، حـ ١ ، م ١ ، ص ٥١ — ٥٣) .

(١) وردت فى النسخة (ن م . : ص ٢٠٨ ب) : المعظم ولكن الاعظم هو التعبير الشائع .

(٢) يلاحظ أنه هو الذى قاد الحملة العثمانية التى أخرجت الحملة الفرنسية من مصر بالتعاون مع القوات الإنجليزية .

(٣) هكذا وردت فى النسختين ، ويرجح أن الضمير المثنى هنا يشير الى خطاب الصدر الأعظم والى خطاب يوسف باشا والى جدة ومحافظ المدينة سابق الذكر .

(٤) من أهم الموانىء المصرية على البحر الأحمر منذ أقدم العصور ، وكانت تسمى قديماً : تاعو Taéou وكان اسمها اللاتينى Lefkos Limin وهى تقع تجاه مدينة قوص — قصبة الصعيد على مر العصور — وكان بينهما طريقاً برياً لنقل البضائع ولتسهيل حركة التصدير والاستيراد بينها وبين بلدان البحر الأحمر ، ولذلك قال ياقوت الحموى فى التعريف بها : « وفيه مرفأ لسفن اليمن » ، وحالياً بينها وبين قنا طريق مستقيم يبلغ طوله : ١٥٥ كيلو متراً . والقصير الحالية تقع الى الجنوب قليلا من القصير القديمة التى اندثرت تقريباً . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية القسم الثانى ، حـ ٤ ، ص ٢٧١) .

من نواحيكم، فأذيقوه حرباً حاراً، ليتوصل به إلى آية الهاوية بئس القرار، ولا تهابوه فإن قلبه طار، وقصده النجاة لا بلغه الله الأوطار، فلا تغفلوا واحذروا مكر الفجار، وكونوا على قلب واحد أيها المؤمنون، فالله معنا والنبي المختار، فلأنه سابقاً في أوسط شوال قد تعدوا[١] الكفرة اللئام، إلى أطراف الشام، وحاصروا عكا بلدة الجزار، بعسكر ينوف على خمسين ألفا من الكفار، وتم الحصار بتلك النواحي أربعة وستين يوماً، واشتد الكرب على المسلمين، فوفدت بجدة من الدولة العلية ثمانية عشر مركباً، مدافعها وبارودها، ومن يعطى حقها رجالها، فقابلوا الكافر، وقتلوا ماينوف على ستة وعشرين ألفاً من الكفار، أهوى بهم إلى بئس القرار، واستشهد من المسلمين مقدار، فبعد إذ عاين عدو الله القتلى، والآية الكبرى، انهزم وولى الأدبار، وإلى أطراف مصر طالباً الفرار. وإلى يوم تاريخ كتابنا نرجوه سبحانه، عم نواله، إنهم وصلوا وبلغوا المنى، وإن شاء الله عما قريب نسمعكم بشراها، ونحمد عقبى مسراها، بحق ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾[٢].

هذا ونبشركم بما جرى سابقاً ولاحقاً، وأن يلقب مليكنا ويتلى له على المنابر غازياً صادقاً، هو أنه لما بلغ الدولة العلية خبر قهر مصر جهزوا على ساقية عدو الدين، وذلك إقليم الونديك التي فيها دار الضرب للمستخص[٣] العتيك التي[٤] هي من حوز حكومة الفرنسيس، وتحت تصرفه براً وبحراً، وضبطوا ذلك الاقليم جميعه وتلك النواحي، وما في ذلك (٢٢٨) الاقليم في

---

(١) جاءت في النسخة الأم : تعدى، وصححت في النسخة (ن م : ص ٢٠٨ب).

(٢) الآية ٤١ مكية من سورة هود رقم ١١ .

(٣) وردت في النسخة (ن. م. : ص ٢٠٩أ) : للمشخص .

(٤) لم تذكر في النسخة (ن. م. : ص ٢٠٩أ) .

البر ثمان بلدان بقلاع من أحسن ماتسمع[1]، ومقر سلطنتهم بلدة أوصف وأوسع، وغير ذلك قلاع صغار ما تعد، وقرى لا تعد[2]، فقتلوا من صد، وأسروا أسراً لا يوصف بحد، ما ذكرناه فى البر وفى البحر، أربع جزائر منيعات حصينات، صارت الجميع فى قبضة الاسلام، ومحى منها شرك الظــــلام، وجاءت مفاتيحها إلى مليك زماننا، وصارت فيها من طرف الاسلام، وزراء عظام، وأمراء كرام، بحمد الله الملك العلام، وبعدما قطعوا ساقيــة عدو الدين، وجهت الدولة العلية وجه وجهتها إلى أخذ الثأر إلى مصر براً وبحراً، وهذا الخبر ورد إلينا مع تابعنا الذى أرسلناه إلى الدولة العليــة، وكان وصوله إلى المدينة المنورة فى اليوم السابع عشر من صفر الخير بتحريرات من الدولة العلية العثمانية موضحة لنــا ما شرحناه لــكم من فتوحات إقليم اللونديك والتوجه إلى أخذ الثأر، وقمع أولئك الفجار، وهاحضرة صاحب الختام، أقبل بعساكره والصافنات الجياد براً، والسفن السائرات بحــراً، قاصدين مصر وتخليصها من لوث الشرك

---

(١) جاءت فى النسخة (ن. م. : ص ١٢٠٩ آ) : يسمع.

(٢) المقصود هنا — من وراء هــذه الفقرة جميعها — هو مجموعة جــزر الايونيان (المتناثرة أمام الشاطىء الغربى لجنوب شبه جزيرة البلقان، وأهمها جزر : كورفو، زانتى، سيفالونيا) التى كانت تتبع جمهورية البندقية ثم استولى عليها بونابرت أثناء حملته الناجحة على ايطاليا قبل قدومه إلى مصر. وعقب عقــد التحالف الثــلاثى العثمانى — الروسى — الانجليزى، تعاون الأسطول العثمانى والأسطول الروسى فى الاستيلاء على هــذه الجزر. وكانت الامبراطورية العثمانية تخشى انتشار مبادىء الثورة الفرنسية فى الممتلــكات العثمانية فى البلقان لقرب المسافة بينهما، وخاصة لأن أهالى هذه الممتلــكات فى حالة تذمر على الحــكم العثمانى حينذاك. وكان من أهم شروط الصلح — فيما بعد بين فرنسا والامبراطورية العثمانية — الذى تم فى ١٨٠٢ م — أن تــكون هــذه الجزر مع البندقية جمهورية مستقلة، وكانت فرنسا لا تجد غضاضة فى ذلك حتى تحرم روسيا من موضع قدم لها فى البحر المتوسط.

(Encyclopaedia Britannica : Vol. 22, p,378,

، محمد فريد : الدولة العلية العثمانية، ص ١٨٥ — ١٨٨).

والكفر، نرجو(١). مولانا سامع دعانا أن يدمر الأعداء حيث مادانوا، ويعلي ويعمر كلمة الايمان أينما كانوا بحق من أنزل عليه ﴿ نصرٌ من اللهِ وفتحٌ قريبٌ ﴾(٢) إنه سميع مجيب . وكما شرحنا إليكم ربما أن بعض الكفرة الفرنسيس اللئام يفرون من القصير إلى نحوكم فإن رأيتم أحداً منهم اقتلوه، وأسروه حيثما ثقفتموه ، وأنباعينا(٣) المرسلين إليكم مهلوهما إلينا ، بجواب كتاب صاحب الدولة العلية وجودة (كذا)(٤) كتابنا ، وأخبار تلك الأقطار أفصحوه إلينا سريعاً إنه جل المرام ، والسلام ختام .

المحتاج إلى عفو الله الحاج يوسف باشا والى جده ومحافظ المدينة المنورة .

---

(١) وردت في النسخة (ن. م. : ص ٢٠٩ أ) : نرجو من الله .

(٢) الآية ١٣ مدلية من سورة الصف رقم ٦١ .

(٣) استخدم المثنى هنا خطأ وصحته : تابعينا ، وذلك إشارة إلى الرسولين اللذين أرسلا إلى الامام .

(٤) هكذا وردت في النسختين ، ونرى أن صحتها : وجواب ، ذلك لاتفاقها مع سياق الحديث .

[١٨]

[خطاب الصدر الأعظم إلى الامام المبلغ مع خطاب والى المدينة المنورة]

هذا لفظه ، ولفظ وزير السلطان بن عثمان فى كتابه إلى الامام : سلام يعطر رياه(١) رياض الوداد ، وثناء يفيض بسلساله حياض السداد ، إلى حضرة من حف بالألطاف الالهية ، والعترة المحمدية ، وأنواع المنن ، إمام صنعاء اليمن ، وبعد :

فالذى ننهى إليكم ، ونهديه لديكم ، أن الطوائف الفرنساوية ، دمرهم الله بشواير(٢) صواعقه القوية ، نقضوا عهود الصلح والميثاق ، وسعوا فى الأرض الفساد والشقاق ، وخانوا الملة الأحمدية البيضاء ، وقاموا على الأمة المحمدية السمحاء . حيث هجموا بغتة على بلادالاسلام ، وما راعوا قوانين الدولة فى الأخبار (٢٢٩) والإعلام ، وأبدعوا من الدسائس والحيل والخدع ، ما لم يرتكبه أحد من أهل الغى والبغى والبدع ، فاستولوا فجأة على الاسكندرية ، ومصر القاهرة ، وتحكموا على علمائها وفضلائها وساداتها الفاخرة ، وسبوا صبيانها ، وهتكوا أعراض نسوانها الطاهرة ، ففرضت علينا فرض العين إقامة الغزو والجهاد ، والمحاربةمعهم فى كل ناحية وناد ، لازالت جمعيتهم طعمة لسيوف الموحدين ، وجملتهم متشتتة لسطوة صفوف المؤمنين ، فانعقدت بيننا وبين الدولة الانجليزية والروسية على محاربتهم روابط الاتفاق والاتحاد ، وظهرت من هاتين الدولتين آثار الاقدام والاحجام لأولئك الفساد ، حيث ترافقت سفن الروسية مع سفائن

---

(١) لم يرد ذكرها فى النسخة (ن. م. : ص ٢٠٩ أ) .

(٢) ربما المقصود هنا هو : بنيران .

سلطاننا الأعظم ، وخاقاننا الأفخم ، لا زالت روضة سلطنته منظرة بنسيم النصر والنجاح ، وشمس شوكته مشرقة فى سماء الفوز والفلاح ، وهجموا على قلعة قُـورَّفه(١) التى كانت أخذتها تلك الطائفة الباغية من أيدى اللوانديك ((بحراً))(٢) جبراً ، وحاصر جيش من جيوشنا المنصورة المرسلة براً ، فنزعوها منهم ، فاستؤصل منهم الأكثرون ، واسترق الباقون ، فجاءت مفاتيحا (كذا)(٣) إلى يد سلطاننا سلطان الأنام ، ودخلت بحمد الله فى حوزة ممالك الإسلام ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فتصبح من شرذمتهم السائرة(٤) بعضهم جريحاً طريحاً وبعضهم قتيلا : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾(٥).

وسفائن الانكليز أيضا مع سفائننا السائرة صدوا سبيل المستوليين على مصر القاهرة ، من أولئك الكفرة ، الفجرة ، وقصدوا إلى محاربتهم بالغيرة الكاشرة ، فأخذوا من سفائنهم المخذولة بعضاً وأغرقوا بعضاً . ونهضت عليهم عساكرنا المنصورة من طرق(٦) البر ، فتضيق عليهم بعون الله الأرض بما رحبت طولا وعرضاً .

وهذا المحب الودود بعون الله المعبود ناهض بالذات عليهم ، بترتيبات(٧) مهمات السفر ، وتداركات أسباب الظفر ، بجنود لا قبل لهم بها من الأتراك

---

(١) صحتها : كورفو ، لاحدى جزر الأيونيان التى كانت من ممتلكات البندقية ثم استولى عليها الفرنسيون عند اجتياحهم لإيطاليا .

(٢) زيادة من النسخة (ن ۰ م ۰ : ص ٢٠٩ ب) ۰

(٣) هكذا وردت فى النسختين ، وصحتها : مفاتيحها ۰

(٤) وردت فى النسخة (ن ۰ م ۰ : ص ٢٠٩ ب) : الثائرة ۰

(٥) الآية ٦٢ مدنية من سورة الأحزاب رقم ٣٣ ۰

(٦) وردت فى النسخة (ن ۰ م ۰ : ص ٢٠٩ ب) : طريق ۰

(٧) وردت فى النسخة (ن ۰ م ۰ ص ٢١٠ أ) : وترتيبات ۰

والأعجام واللزكية والأكراد ، وغيرهم ممن لهم فى الحرب صولة واعتياد ، ففى ما صدر من أولئك المخذولين الخاسرين ، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، من الخيانة والخبائث والفساد ، والعلو والعتو والعناد ، يفرض على كل مؤمن فرض العين ، أن يعين الدين ، ويهين الكافرين ، ويعامل من كان بيننا وبينهم الاتفاق والاتحاد ، معاملة الحب والوداد ، فالمأمول من غيرتكم الدينية ، وحميتكم العربية ، أن تكونوا (٢٣٠) منتبهين ومتيقظين ، وأن تراعوا مع طائفة الإنكليز والروسية مراسيم الوداد والوفاق ، وتخابروا دائماً مع الوزير المكرم والى جده ومحافظ المدينة المنورة الضياء يوسف باشا دام فى حفظ الله الخلاق ، وتكونوا على رأيه وتدبيره ، ومقتضى تفهيمه وتحريره ، ودمتم سالمين ، بجاه محمد الأمين ، آمين .

حرر فى أواسط شهر ذى القعدة الشريفة لسنة ثلاث عشرة ومائتين وألف[1] . المستمد من البر الأكرم الحاج يوسف ضياء الوزير الأعظم ، انتهى .

قلت : ووصل هذا إلى الامام فى ربيع الأول من عام أربع عشر ومائتين وألف[2] . وفى ألفاظهم وتسجيعاتهم هذه ركة ظاهرة ، وتناثر فى نظم الكلام ، غير أنه مفهوم المراد[3] .

---

(١) يوافق : ٢١ أبريل سنة ١٧٩٩ ميلادية .

(٢) يوافق : أغسطس / سبتمبر ١٧٩٩م .

(٣) تعليق طريف للمؤلف ، رغم أن أسلوب الكتابة حينذاك كان متشابهاً متقارباً .

[١٩]

[تعليق المؤلف على نهاية أحداث الحملة الفرنسية على مصر]

(٢٣٠٥) واعلم أيدك الله بتوفيقه أن كتابه(١) هذا قد أعرب على نجدة ، وجيشه قد كان فى قوة وعدة . غير أنه لما قارب ديار مصر هال جنود الكفار أمره ، فراسلوه بالمصانعة ، وخدعوه بالأموال ، وبذلوا له النفائس وسألوه الاقالة ، ووعدوه الارتحال ، وأخذوا عليه التحول عن البر والبحر ، فانخدع وسار بالجيوش نحو الشام(٢) ، فلم يشعر إلا بكتاب من السلطان ، يأمره فيه بالشدة ، ويأخذ عليه كمال النجدة ، ويحذره الفتور ، فعاد ثانية ، وأرسل إليهم أن لا بقاء لهم بها ، وأنه مُخرج لهم منها ، فصالحوه على أنهم على الخروج، فاشترط حط السلاح والأموال ، وإلا كان القتال ، فكانوا على شرطه إلا من كان بالبحر ، فإنه ذهب بشىء مما له من الأموال(٣) . ولما تخلت مصر عن الكفرة دخلها يوسف باشا ، وأخذ أموالا لا تحصيها الأقلام ، وأقام على أهلها صنجقاً عظيما عليه طاهر باشا وعاد إلى حضرة السلطان .

* * *

(١) الضمير هنا يعود على الصدر الأعظم ، وهو يوسف ضياء باشا .

(٢) ينطبق على هذا النص ما سبق أن ذكرناه فى الدراسة التمهيدية من ناحية نقص معلوماته عن أحداث الحملة فى مصر والشام ، فلم يكن هناك خداع أو بذل للنفائس بل الأمور تطورت تطوراً عادياً كما هو معروف . فقد تقدم الصدر الأعظم إلى العريش واستولى عليها ، ثم عقدت اتفاقية العريش التى شارك فى إبرامها السير سدنى سميث ، غير أن الحكومة الانجليزية رفضت هذا الصلح من جانبها ، وأصرت على أن يسلم « جيش الشرق » نفسه كأسرى حرب ، فأدى هذا الى اشتعال الحرب ثانية ، وتمكن الفرنسيون من صد زحف الصدر الأعظم إلى داخل مصر والاستيلاء على القاهرة .

(٣) إشارة إلى تجدد القتال ، وزحف الجيش العثمانى من الشرق وزحف الحملة الانجليزية من الشمال — بالاضافة إلى الحملة الانجليزية من البحر الأحمر عن طريق القصير — مما أدى فى النهاية إلى إخراج الفرنسيين من مصر .

ملحق

بمؤلفات لطف الله جحاف

- المرتقى إلى المنتقى .
- ديباج كسرى فيمن تيسر من الأدب لليسرى .
- العباب فى تراجم الأصحاب .
- فنون الجنون فى جنون الفنون .
- قرة العين بالرحلة إلى الحرمين .
- العلم الجديد .
- التاريخ الجامع .
- درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور على وأعلام دولته الميامين .

المــراجع

المخطوطات :

لطف الله بن أحمد جحاف .

درر نحور الحور العين فى دولة الإمام المنصور على ورجال دولته الميامين .

– النسخة الأم ، وهى محفوظة بمكتبة السيد عبد القادر بن عبد الله بصنعاء .

– النسخة الثانية ، وهى محفوظة بمكتبة السيد محمد بن محمد بن اسماعيل بن مطهر المنصور بصنعاء .

– خمس نسخ أخرى متفرقة أقل أهمية .

المراجع العربية :

– ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى (ت : ٧١١ هـ) .
لسان العرب ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، صورة مصورة من طبعة بولاق ، ١٣٠٨هـ (٩٠/١٨٩١م) ، عشرون جزءاً

– أحمد البديرى الحلاق .

• حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ — ١١٧٥ هـ ، ١٧٤١ — ١٧٦٢ م نقلها الشيخ محمد سعيد القاسمى ، حققها ونشرها الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥٩م ، ص ٣١٣ .

— حمد الجاسر .

* بلاد ينبع ، لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة ، بدون بيانات ، ص ٢٣٩ .

— خير الدين الزركلي

* الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العــرب والمستعربين والمستشرقين ، القاهرة ، مطبعة كوستاموس ، ١٩٥٤ — ١٩٥٩ ، عشرة أجزاء ، عشرة مجلدات .

— عبد الله محمد الحبشي

* مراجع تاريخ اليمن ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٧٢ ، ص ٣٨٣ .

— عبد الرحمن الجبرتي

* عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، القاهرة ، المطبعة العامرة الشرفية ، ١٣٢٢هـ (١٩٠٥/٤م) ، حـ٢ ، ٣ ، ٤ .

— عبد الواسع بن يحيي الواسعي

* البدر المزيل للحزن في فضــل اليمن ومحاسن صنعاء ذات المنن ، القــاهرة ، مطبعة التضامن الأخوى ، ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧/٦ م) ، ص ٣٦ .

* تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٤٦هـ (١٩٢٨/٧م) ، ص ٤٠٠ .

— عثمان بن بشر النجدى الحنبلي (ت : ١٢٨٨هـ) .

* عنوان المجد في تاريخ نجد ، الرياض ، مكتبة الرياض الحديثة ، د.ت. ، حـ١ ، ٢ ، في مجلد واحد ، ط. ١ ، ص ٢٥٥ ، ١٤٣ .

— عمر رضا كحالة

* معجم المؤلفين ، تراجم مصنفي الكتب العربية ، دمشق ، المكتبة العربية ، ١٣٧٦ — ١٩٥٧م ، حـ ١٥ ؛ م ١٢ .

— فيروزابادى

* القاموس المحيط ، القاهرة ، المطبعة المصرية ، ١٩١٣م ، أربعة أجزاء في أربعة مجلدات .

— محمد بن أحمد الحجرى

* مساجد صنعاء ، عامرها وموفيها ، صنعاء ، مطبعة وزارة المعارف ، ١٣٦١هـ (١٩٤٣م) ، ص ١٤١ .

— محمد بن عبد الله بن بليهد

* صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار ، وقف على طبعه وقدم له ابن المؤلف : عبد الله بن محمد ، راجعه محمد محيي الدين عبد الحميد ، ١٣٩٢هـ — ١٩٧٢م ، خمسة أجزاء في مجلدين .

— محمد بن على الشوكانى

* البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٤٨ هـ (٢٩ / ١٩٣٠ م) ، ط ١ ، جزءان ، ص ٥٢٧ ، ٣٧٦ .

— محمد بن محمد بن يحيي زبارة الحسنى اليمنى الصنعانى

* نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر من هجرة سيد البشر صلى الله عليه وآله وسلم ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، ١٣٥٠هـ (١٩٣٢/١م) ، ص ٤٢٨ .

— محمد رمزى

* القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، من عهد قدماء المصريين إلى سنة

١٩٤٥م ، القاهرة ، وزارة الثقافة ١٩٥٨ ، قسمان ، القسم الثانى من أربعة أجزاء ، ص ٤٨٠ ، ٢٦٨ ، ٣٤٤ ، ٢٥٦ ، ٢٧٤ .

— محمد فؤاد شكرى (الدكتور)

• الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة ، مطبعة المعارف ، د.ت. ص ٢٥٦ .

• الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، د.ت. ، ص ٧٠٤ .

— محمد فؤاد عبد الباقى

• المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، القاهرة ، دار ومطابع الشعب ، د ت . ، ص ٧٨٢ .

— محمد فريد (بك).

• تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة ، مطبعة التقدم ، ١٩١٢ م ، ص ٤١٥ .

محمد مختار باشا (اللواء)

• التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ؛ ١٣١١هـ (١٨٩٤/٣ م) ، ط ١ ، ص ٧٥٢ .

— الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى (ت : ٢٦١ هـ)

• الجامع الصحيح ، القاهرة ، نظارة المعارف ، دار الطباعة العامرة ، ١٣٢٩ ١٣٣٢هـ (١٩١١ — ١٩١٩م) ، جـ ٨ ، م ٤ .

ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى (ت : ٦٢٦هـ)

• معجم البلدان ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٠٦م ، ط ١ ، ٨ أجزاء فى ٤ مجلدات .

المراجع الأفرنجية :

- Panikkar, K,M. : Asia and Western Dominance, A Survey of the Vasco Da Gama Epoch of Asian History, 1498 – 1945, London, George Allen and Unwin LTD, 1953, p. 530.

- Playfair, R. L. : A History of Arabia Felix or Yemen, From the commencement of the Christian era to the present time, Including an account of the British Settlement of Aden, Bombay, Education Society's Press, 1859.

- Encyclopaedia Britannia : 1972 Vol, 6, 22.

فهرس البلـــدان

(ن)

(هـ)

(ى)

فهـــرس الأعلام

الفهـــرس

الصفحة

رقم الايداع : ١٩١٩/١٩٨٩

ترقيم دولى : ١ـ ١١٩ـ ١٣٣ـ ٩٧٧

طبع بالمطبعة الفنية ت : ٣٩١١٨٦٢

